مصطفى طيبة

هل انهار المشروع القومي الناصري ؟!

رؤية جديدة للناصرية

التقديم بقلم : أمين عز الدين

● الغلاف والاخراج الفنى : محمد بغدادى

● تنفيذ ماكيت : ممدوح شهبه

● جمع تصويرى : محمد أمين

الناشر المركز المصري العربي

٧ شارع النهضة ـ طريق الملك فيصل ـ الهرم ـ تليفون ٥٢٥٦٠٧

مقدمة

تاريخ مصر زاخر بالشخصيات والاحداث التى لم تختلف القوى الاجتماعية الشريفة بشأنها ، رغم ماعرف من تباين فى الرؤية وتباين فى المنطلقات والمواقف ، بين هذه القوى وتنظيماتها .

من هذه الشخصيات .. الزعيم الراحل جمال عبد الناصر .

ومن هذه الأحداث .. ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ والثورة الناصرية .

فقد التقت القوى الاجتماعية الشريفة فى مصر عند الكثير من

نقاط الاتفاق فى رؤيتها وتقييمها وتقديرها لثورة ٢٣ يوليو وللناصرية وزعيمها الخالد عبد الناصر . ولم يخرج على هذا الاتفاق أو عزف عن قبوله غير المكابرين من أعداء شعبنا فى الداخل والخارج ، وغير أولئك المنقبين عن السلبيات ... يطلقونها كقنابل الدخان علها أن تخفى وهج الايجابيات .. ثم يكذبون ويكذبون حتى يصدقوا أنفسهم وينكفئوا سعداء على أوهامهم .

ولقاء الاتفاق ـ هنا ـ بين الاستاذ مصطفى طيبة ، مؤلف هذا الكتاب الهام ، وبين كاتب هذه المقدمة ، لقاء طبيعى ، رغم مابينهما من اختلاف فى بعض زوايا الرؤية والمواقف . وهو لقاء يفرضه إلتزامهما بالموضوعية والعلمية فى فهم الأمور . وهما يُعملان البصر والبصيرة فى تجربة ثورة ٢٣ يوليو ، ورجلها العظيم جمال عبد الناصر .

المؤلف مفكر وكاتب ومناضل ماركسى ...
وكاتب المقدمة مفكر ومؤرخ ومناضل ناصرى ..

وكم شجر بينهما من خلاف ، وكم تفرقت بينهما السبل والدروب . ولكنهما ، بالتزامهما العلمى والموضوعى ، لم يتنكرا يوماً لما هو قائم بينهما من مساحات مشتركة للقاء ، وحقيقة ماكان ولايزال يجمعهما وحدة الموقف والاتجاه إزاء العديد من قضايا شعبنا ومعاركه النضالية .

فى الستينيات ، كانت أحلامنا المشتركة فى إقامة مجتمع اشتراكى على أرض مصر ، تقارب التحقيق أو تتلألأ على الأفق القريب .

كانت تجمعنا بالتأكيد استراتيجية واحدة للثورة الاجتماعية ، وإن فرقت بيننا حتمية تعدد الطرق الى الاشتراكية ، وشغلنا الحوار الدائر

بيننا فى هذا الصدد عن الأعداء المتربصين بالتجربة الناصرية والمتآمرين على الحلم العظيم .

وحلت علينا سنوات عجاف فى أوائل السبعينيات ، حينما تجمعت قوى الثورة المضادة الكامنة داخل النظام الناصرى ، والمتسللة الى أخطر المواقع فى مؤسساته الدستورية والاقتصادية والادارية ، تجمعت لتوجه ضربتها النافذة الى النظام فيما عرف بانقلاب ١٥ مايو المشئوم ، الذى حشد عملاءه فى كتيبة للردة والتخريب ، تمهد الأرض للغزو الأمريكى الصهيونى لمصر ولتفرض التبعية والجهالة على شعبها .

كانت مصيبة المؤلف وصاحبه كاتب هذه المقدمة ، فيما جرى ، مصيبة واحدة . وكان نصيبهما من الهزيمة والتمزق النفسى والاغتراب ، نفس النصيب . فأعداء ثورة ٢٣ يوليو والثورة الناصرية ، الذين نفذوا انقلاب ١٥ مايو ، لم يفرقوا بين الناصريين والماركسيين ، واعتبروا كل الوطنيين الشرفاء أعداء لهم ، وقوة ثورية ينبغى تصفيتها كشرط أساسى لنجاح الغزو الأمريكى الصهيونى لمصر .

ورغم عمق النكسة وهموم الهزيمة ، ظلت مساحة اللقاء والاتفاق بين المؤلف وكاتب المقدمة : ممتدة .. بل وتزداد اتساعاً يوما بعد يوم . ولعلهما ، وهما يعانيان المأساة ، قد أصبحا أكثر ميلاً الى البحث عن المزيد من الاتفاق والمزيد من نقاط الالتقاء . وساعدهما على اجتياز المحنة . وتبديد ذلك الليل الحالك الطويل ، أمران أساسيان :

أولهما : التزامهما بالرؤية العلمية فى تحليل الأحداث وكشف قوى الثورة المضادة وتشخيصها .

ثانيهما : ايمانهما بحتمية النصر للشعوب ، وحتمية الهزيمة لأعداء الشعوب .

والحقيقة أن مصطفى طيبة لم يكن ممن يستكينون للهزيمة أو ينزوون فى ركن من الصمت والانكسار ليلعقوا جراحهم . فخبرته النضالية الطويلة ، ورؤيته العلمية ، تفرضان عليه أن يهب وينهض ، وأن يبادر الى تحليل الانقلاب وتشخيص القوى التى أحدثته ، وأن يكشف عن السلبيات والمنافذ التى استغلها الانقلابيون وهم يسددون ضربتهم الى النظام ، وأن يستخلص الدروس المستفادة من الهزيمة لتكون زاداً له وهو يستأنف النضال من جديد .

والكتاب الحالى هو إحدى ثمرات المؤلف ووقفته فى مواجهة انقلاب ١٥ مايو والغزو الأمريكى الصهيونى لفرض التبعية والعزلة على مصر .

والشىء المؤكد أن المؤلف قد أفزعه مدى التخريب الذى أحدثه انقلاب ١٥ مايو فى البلاد . فقد غطى ساحة شاسعة شملت كل ماحققته ثورة ٢٣ يوليو والناصرية من انجازات فى التنمية الاقتصادية وتطوير العلاقات الاجتماعية ، وفى مجال العمل القومى الوحدوى . بل إن هذا التخريب امتد الى البنية الأساسية للقيم الاجتماعية الأصيلة وراح يمزق وشائج المواطنة والأخوة فى حياتنا اليومية ويقتل روح العمل الوطنى فى كل مشروع للنفع العام أو التنمية .

ولكن يبدو أن المؤلف لم يشأ أن يلاحق فى كتابه الحالى مجمل جرائم التخريب فى هذه المجالات جميعاً ، وانما فضّل أن يركز جهده على جريمة ١٥ مايو ضد المشروع القومى الناصرى . والأرجح أن اختياره لهذا المجال بالذات ، قد أملته عليه عدة اعتبارات منها :

١ ـ إن المشروع القومى الناصرى كان انجازاً محوريا لثورة

٢٣ يوليو والناصرية ، جسد التحدى العربى لقوى الرجعية ولقوى الغزو الأمريكى الصهيونى للمنطقة العربية .

٢ - إن المشروع القومى الناصرى - بطبيعته - مشروع وطنى التزمت به الجماهير المصرية والتفت حوله . وهو فى نفس الوقت مشروع قومى مكّن الجماهير العربية من أن تعبر بالرؤية والفعل الثورى حدود التجزئة المفروضة على أمتنا العربية .

ففى اللحظة التى يدعى فيها أعداء القومية العربية ، سقوط المشروع القومى الناصرى ، ويهلل عملاء أمريكا والصهيونية العالمية لهذا النصر الموهوم ، يطلع عليهم كتاب مصطفى طيبة ، وليكشف لهم ولنا على السواء ، غير مايظنون . ويثبت لنا ولهم أن جمرات المشروع العظيم لاتزال متوقدة تحت ركام التخريب ، وأنها لن تلبث أن تشتعل من جديد لتحرق الجناة وتفضح خيانتهم وتعرى عمالتهم ، وترمى بهم نهائيا فى مزبلة التاريخ .

وبهذا العمل الفذ ، يكون المؤلف قد فتح أمامنا مجالات البحث والتنقيب فى حقيقة ما أحدثه الانقلابيون من تخريب فى انجازات ثورة ٢٣ يوليو والناصرية ، والى أى مدى نجحوا فى مؤامراتهم وخططهم لتصفية هذه الانجازات .

والمؤلف هنا لايدافع عن ثورة ٢٣ يوليو والناصرية ، على طريقة بعض أهلها والمدافعين عنها بالانفعال والصوت العالى . فهو لايصرخ ولايحتد ولاينفعل ، بل يناقش الأمور فى أناة وصبر وموضوعية .

فالكتاب يعرض المشروع القومى الناصرى ليجدد فى ذهن القارىء المخضرم والقارىء الحديث ، أبعاد هذا المشروع وغاياته والظروف

التاريخية والموضوعية التى أحاطته ، والعقبات والنكسات التى لحقت به . ثم يأتى الكتاب الى مرحلة إنقلاب ١٥ مايو والغزو الأمريكى الصهيونى باعتبارها أقصى مرحلة واجهها المشروع القومى الناصرى . وهنا يبدو المؤلف فى أروع اشراقاته وفى قمة قدراته التحليلية ، وهو يحدد أهداف القوى الانقلابية المعادية ، ويعترف لهم بما حققوه من « انتصارات » مؤقتة ضد الناصرية وضد مشروعها القومى . ولكنه لايلبث أن يفجعهم - فى موضوعية بالغة - بأن مؤامراتهم ذهبت سدى وبأن ماتوهموه نصراً لهم ضد شعبنا العربى وحلمه القومى ، كان فجراً كاذبا أو عمى ألوان . فالمشروع القومى الناصرى لايزال سليماً يملك عافيته ، وجمراته المتوقدة لاتزال تحت الركام مؤذنة بالاشتعال والتوهج من جديد .

ولاأدرى لِمَ تلح علىّ بعض ذكريات الحرب الفيتنامية الآن ، وقصة « الأمريكى القبيح » الذى حذق فى استخدام الكيماويات لحرق الخضرة ومحاصيل الأرز ، وابتكر فخاخ الديناميت فى شكل أقلام الكتابة ولعب الأطفال ، ليقتل أبناء المدارس وأطفال الحضانات ، وصب أطنان النابالم اللزج لسلخ جلود الفيتناميين .

لقد كان هذا « الأمريكى القبيح » يذيع بعد كل غارة أنه انتصر على شعب فيتنام بعد دفنه تحت الركام . ولكن جمرات هذا الشعب العظيم ظلت متوقدة ، وظلت تنبض بالمقاومة حتى تمكنت من « الأمريكى القبيح » ودحرته . وانتصر الشعب الفيتنامى العظيم على العدوان الأمريكى وعلى « الأمريكى القبيح » الذى توهم أنه قاب قوسين أو أدنى من النصر .

لاأدرى لِمَ تلح علىّ صورة « الأمريكى القبيح » وأنا أقرأ كتاب مصطفى طيبة وأتابع قصة المشروع القومى الناصرى الذى كان هدف التآمر الأمريكى الصهيونى وهدف ١٥ مايو ، وربما لايزال كذلك الى اليوم .

فإذا كان « الأمريكى القبيح » لم يستوعب الدرس الفيتنامى ولم يتعظ به ، وهو ينقل عملياته ومؤامراته الى منطقتنا ضد الناصرية وانجازاتها ، فإن ذلك يعنى أن « القبح » ليس السمة الفريدة لهذا الأمريكى . فمن ينسى هذا الدرس الفيتنامى المفيد لابد أن يكون بليداً أو عبيطاً . ولانحسب أن مثل هذا البليد أو العبيط يمكنه أن ينتصر أو ينجح فى ضرب الناصرية ومشاريعها القومية والاجتماعية فى مصر .

وهذا على وجه التحديد ما أثبته مصطفى طيبة فى كتابه .

أمين عز الدين

الباب
الأول

هـل انهــــار
المشـــروع القـومى الناصـــرى ؟!

١

تأتى الذكرى التاسعة والستون لميلاد القائد المناضل جمال عبد النـاصر ، لتشهـد المزيـد من التردى العربى ، والمزيد من البلبلة الفكرية ، والانقسامات الحادة بين المثقفين ، نتيجة لاختـلاف المفــاهيم ، والمسلمــات ، والترحــال والهرولــة الفكريــة من مـوقــع فكرى إلى النقيض .. قفزاً وبدون تفسير أو تبرير أو مراحل وسيطة ..

تأتى هذه الـذكرى فى ظروف يتعـاظم فيهـا الجـدل النظرى المجرد ـ حول البحث عن بـديـل لمشروع عبـد النـاصر الثـورى القـومى .. بعـد « انهيـار » هـذا المشروع كما يــدعى المتجادلون .

وإذا كانت الأزمة هى الصفة الغالبة على الوضع العربى الراهن ، أزمة الثورة الفلسطينية ، والمشاريع التنموية التى خططت فى حقبة إرتفاع أسعار النفط ، وأزمة العجز العربى فى مواجهة التحدى الصهيونى والاستعمارى ، فمن الطبيعى أن تنعكس هذه الأزمة على الفكر .. ويصبح مأزق الوجود العربى مجسداً فيما يطرح فى بعض الدراسات والندوات والمقالات .. بحيث يمكن أن تطلق على الكثير من ثمار الفكر المتضمن فى هذه المطبوعات ، فكر الأزمة .

وبقدر ماتزداد مظاهر هذه الأزمة ، وتتفاقم غيوم البلبلة الفكرية الناتجة عنها ، بقدر ماتشتد الحاجة إلى العودة إلى الخبرة التاريخية لثورة ٢٣ يوليو فى مصر ، والى المشروع القومى لهذه الثورة ـ لنرى مدى قدرتها على المشاركة فى الجدل الدائر .. والذى تزعم معظم أطرافه ، أن المشروع القومى الناصرى قد انهار .. ولاسبيل إلى إعادة الحياة فيه !

والواقع أن الجدل الدائر حول البحث عن مشروع قومى نهضوى ، والحديث عن أزمة الفكر القومى ، إنما هو رد فعل فكرى ثقافى لسيادة الثورة المضادة ، يشغل نفسه بالاستغراق فى قضايا نظرية مجردة ، يتعالى بها على حركة الواقع الحى .. وما تتطلبه من أعباء نضالية .

لذلك فإن العودة إلى التجربة التاريخية لثورة ٢٣ يوليو ، ودراسة مراحلها وانجازاتها ، وما أفرزته من فكر قومى ثورى ، هو الرد الموضوعى على فكر الأزمة السائد الآن بين قطاعات واسعة من المثقفين ، وعلى الفئات التى تتظاهر بالدفاع عن منجزات التجربة الناصرية ، وتحاول فى نفس الوقت استبعاد خبرتها وفكرها الأصيل ، عن مواصلة الدور التاريخى ، رغم النكسة المؤقتة التى أصابت حركة الثورة العربية ، وتراجع المد القومى الوحدوى ، بعد هيمنة ظلام الثورة المضادة ، وعزل مصر الرسمية عن دورها المحتوم فى قيادة الأمة العربية ، نحو الحرية والوحدة .. وهزيمة المشروع الصهيونى الاستعمارى .

ورغم مئات الكتب والدراسات والمقالات ، التى تناولت ثورة ٢٣ يوليو ، ومنجزاتها ، وتطوراتها ، فإن الحاجة تدعو إلى تناول جديد لهذه الثورة .. إلى رؤية موضوعية لحصيلة فكرها ، وما يحمله من معالم ، مازالت قادرة على إضاءة الطريق أمام أمة مفككة ، وتملك فى نفس الوقت جميع مقومات وحدتها .

لذلك ، فإن هذه الدراسة ستبدأ من حيث يدور الجدل الآن .. من الفكر القومى لهذه الثورة . ورؤية العناصر الجوهرية الحية الكامنة فيه ، والتى تقدم الإجابة الصحيحة التى يسعى إليها المتجادلون حول البحث عن مشروع جديد .

واذا كان التردى الحاصل فى الواقع العربى ، قد أفرز موجة من التشكيك فى الكثير مما يعتبر من البديهيات ، مثل وجود هوية قومية عربية ، فمن الضرورى ونحن نتناول ثورة ٢٣ يوليو وفكر قائدها جمال عبد الناصر ، أن نبدأ بالقضايا الفكرية المثارة .. ومن بينها البحث عن مشروع قومى ، والتراث والمعاصرة ، والهوية القومية ، والعلاقة بين الاسلام والقومية العربية ، لمعرفة الموقف الفكرى والتطبيقى الذى اتخذته قيادة ثورة ٢٣ يوليو من هذه القضايا .. من خلال الممارسة الصعبة ، وسط تحديات استعمارية رهيبة ، وكيف استطاعت هذه القيادة أن تحدد موقعها من هذه القضايا ، بدون استغراق فى قضايا نظرية مجردة ، أو إرتداء ثياب الفلاسفة ، الذين يجهدون أنفسهم فى تأمل المظالم فى عالمنا ، دون التقدم خطوة عملية واحدة لإجتثاث جذور هذه المظالم .

وتغيير الصورة الأليمة للواقع العربى المعاصر ، يحتاج إلى إعادة اكتشاف منهج القيادة الناصرية ، واستخلاص خطة عمل جريئة من أعماقه ، تتفق مع المتغيرات الجديدة ، لتصل فى النهاية إلى نظرية للثورة العربية .. تتكامل عناصرها أثناء الممارسة الحية ، وليس قبلها بأى حال من الأحوال .

وذلك بالتحديد هو الدرس الأول المستخلص من ثورة ٢٣ يوليو .. بدأت بمبادىء ستة بسيطة .. ومنها إنطلقت إلى صياغة مشروعها العام ، النابع من الالتحام الوثيق بين الفكر المتطور ، والممارسة الحية .

والسؤال الأول الذى سنحاول الإجابة عليه هو : **هل انهارت التجربة الناصرية ، أو المشروع الناصرى انهياراً كاملا .. يستدعى البحث عن مشروع بديل ؟**

والإجابة على هذا السؤال ، تحتم علينا تحديد الفرق بين الانهيار وبين النكسة .

إن فشل ، أو انهيار نظام ثورى ، أو رجعى ، يقاس بعدد من الشروط . أهمها تداعى الأسس الفكرية والسياسية والاجتماعية التى خلقها أو استند إليها هذا النظام ، وهزيمة توجهاته الرئيسية . وإثبات عجزها عن الملائمة مع حركة الواقع ، واتجاه تطور التاريخ ، بما يتفق مع تطلعات الجماهير .

وذلك ينطبق على النظم الفاشية والنازية فى ايطاليا وألمانيا قبل الحرب العالمية الثانية .. كما ينطبق على مئات الانقلابات العسكرية التى قامت ومازالت تقوم فى كثير من دول العالم ، وخاصة افريقيا وأمريكا اللاتينية ، والتى ينهار الواحد منها تلو الآخر ، دون أن يترك أثراً يذكر .

لكن انتكاس الثورة العظيمة لايعنى انهيار مقوماتها ، أو فقدان مشروعية أنصارها فى مواصلة النضال من أجل استعادة أهدافها العظمى .

إن أعظم الثورات فى تاريخ أوروبا ، وهى الثورة الفرنسية ، تعرضت لنكسة خطيرة .. أدت إلى إعادة الملكية ، وسيادة مرحلة من التشويه والادانة لهذه الثورة وأهدافها وقادتها .. بعد عودة البلاد وأسرة البوربون الملكية إلى قصورهم السابقة .

لكن أصالة الثورة الفرنسية كانت أعمق من هذه النكسة .. إذ سرعان ماعادت راياتها تخفق من جديد .. واستعادت حيوية مبادئها ، لتصبح العمود الفقرى لجميع دساتير فرنسا ، ويصبح يوم اندلاعها عيداً قوميا لن يتوقف الاحتفال به أبداً .

ولاشك أن النكسة التى تعرضت لها الثورة الفرنسية ـ كانت أخطر مئات المرات مما حدث لثورة ٢٣ يوليو .. ولحركة الوحدة العربية .

فرغم الإرتداد عن خطها القومى النضالى الوحدوى ، والارتداد عن خط الاستقلال الوطنى والاقتصادى ، إلى التبعية فى العصر الساداتى ، رغم كل ذلك ، فإن الملكية لم تعد إلى مصر ، ولم تستطع جميع حملات الأضاليل والتضليل إقناع الشعب المصرى بالتخلى عن إبراز منجزات هذه الثورة ، مثل القطاع العام ، وقوانين الاصلاح الزراعى ، وتخصيص ٥٠ ٪ من مقاعد مجلس الشعب للعمال والفلاحين ، ومجانية التعليم ، أو عودة الملكية ، وسلطة كبار ملاك الأراضى ، إلخ ..

ولم تستطع هذه الحملات ، استئصال الأسس الفكرية التى غرستها التجربة الناصرية فى العقل القومى العربى .. من إيمان بالقومية العربية ، وضرورة الوحدة العربية ، ومقاومة الأحلاف الاستعمارية العسكرية ، والرفض المطلق للمشروع الصهيونى الاستعمارى ، ومساندة الثورة الفلسطينية فى نضالها من أجل استعادة الوجه العربى القومى لفلسطين .

إن التراث الفكرى النضالى القومى لثورة ٢٣ ، لايزال حياً نابضاً فى وجدان الشعب العربى .. رغم محاولات استئصال هذا التراث . وهو يستمد حيويته من إنتصارات عملاقة تحققت خلال معارك صعبة معقدة ، ووسط تحديات هائلة . فمن أعماق الانتصار على كبار الملاك . والفئات الاحتكارية والطفيلية من الرأسمالية ، نبع هذا التراث .. ومن أعماق الصراع ضد الاحتلال البريطانى . ثم الإنتصار فى هذه المعركة ، نبع هذا التراث .. ومن الإنتصار فى معركة الأحلاف الاستعمارية ، وتأميم قناة السويس ، وهزيمة العدوان الثلاثى ، وتحقيق أول وحدة عربية ـ رغم فشلها بعد ذلك ، وبناء السد العالى ، وإقامة

صرح التصنيع ، ونشر أفكار التحرر الوطنى والعدالة الاجتماعية ، وتأسيس حركة عدم الانحياز ، وعشرات المعارك الأخرى ، من أعماق هذا كله نبع هذا التراث .

فهل يمكن القول ، بأن هذه المنجزات ، صنعتها « أسطورة العروبة الناصرية » ، وأنها لابد أن تنتهى وتختفى من العالم ، بعد موت بطل هذه « الاسطورة » ، جمال عبد الناصر ، كما يقول فريق من علماء الاجتماع الأمريكيين ؟

لنقف لحظة عند مايقوله « مالكوكلم كير » أحد المعبرين عن نظرية « الأساطير » ، إنه يقول : « **إن الأمل معقود على أنه مع تحطيم أسطورة العروبة الناصرية ، فلسوف تعمد كل دولة من الدول العربية إلى تصور دور خاص بها ، يتميز بمزيد من الاعتدال والانضباط والاتزان » .**

ذلك منطق معظم علماء الاجتماع فى الغرب وخصوصاً الولايات المتحدة ومن المؤسف أن هذا المنطق ذاته ، يلتقى مع أصحاب نظرية انهيار المشروع القومى الناصرى . من حيث المضمون ، وإن اختلفت الصياغة والدوافع والأهداف .

والرد على هذا الفكر يأتى من الواقع العربى . قبل وبعد إنطلاق ثورة ١٩٥٢ . ففى ذلك التاريخ . وحتى عام ١٩٥٥ ، لم يكن عدد الدول العربية المستقلة ، يتعدى ثمانية أقطار .. هى مصر ، وسوريا ، والعراق ، والسعودية ، والأردن ، واليمن ، ولبنان ، وليبيا .

وبعد إنطلاق ثورة ١٩٥٢ ، وبلورة توجهاتها القومية العربية ، تعاظمت حركات التحرر العربى فى عالمنا العربى ، واكتسبت باق الدول العربية استقلالها . بل امتدت حركة التحرر القومى العربى ، إلى حد الخلاص من بعض النظم العميلة ، التى حاولت ربط الأمة العربية بالأحلاف الاستعمارية .

ومن الصعب طبعا ، إن لم يكن من المستحيل ، إنكار هذه الحقائق ، وإرجاعها إلى عالم « الأساطير » .. كما يستحيل انكار العلاقة بين الوضع العربى الجديد - رغم سلبياته - وبين الأثر الفعال للمشروع القومى التحررى الناصرى .

لكن النقطة التى يركز عليها خصوم عبد الناصر ، وبعض أصدقائه للأسف الشديد ، هى أن انهيار الوحدة العربية السورية - وهزيمة حرب ١٩٦٧ ، هى أبرز دليل على فشل وانهيار المشروع القومى الناصرى ، بل ونهاية « اسطورة » عبد الناصر ، كرمز للمعارك الظافرة ضد الاستعمار ، ومن أجل الوحدة والنهضة القومية ، أمام الشعب العربى فى الوطن العربى .

والـذين يصـدرون هـذا الحكم ، يتجـاهلون المعنى العميق لثورة يوليـو ، وتـوجهـاتهـا الرئيسية . وما أحـدثتـه من آثـار عميقـة . إن قـدرة أية ثورة على التغلب على انتكاسـاتهـا وهزائمها ، واستعـادة حيويتهـا من جـديـد ، يقـاس بمـا أحـرزتـه من تغيير ، داخل نقطـة إنطلاقها ، أو فى مركزها ، وفى النطاق القومى الذى تنتمى إليه ، بل والعالم من حولها .

أى أن القيـاس يرجع بـالـدرجـة الأولى ، إلى عمق تـأثيرهـا فى موطنهـا الأصلى ، وفى النسقين الإقليمى ، والعالمى ، فى آن واحـد . وكل دارس محـايـد لايستطيع انكار عمق الأثر الذى تركته ثورة ١٩٥٢ . واستحالة انتزاعه ، والعودة إلى نقطة الصفر من جديد .. أى إلى ماقبل هذه الثورة .

ذلك أمر بديهى لايحتاج إلى جدل ، فالحركة القومية الوحـدويـة العربيـة المعـاصرة ، تحمل فى كل جزء من نسيجها . معالم المشروع القومى الناصرى .

وحركـة التحرر الأفريقيـة ، وحركـة عـدم الانحيـاز ، وانتصـار الثـورة الجـزائريـة ، والعراقية ، والسودانية ، واليمنية ، وغيرها من الثورات تحمل أيضاً نفس الآثار .

والقول بأن انهيار الوحدة المصرية السورية ، وهزيمة ١٩٦٧ ، ثم انتصار الثورة المضادة فى مصر بعد موت جمال عبد الناصر قد أسفر عن هزيمة المشروع القومى النـاصرى ، وفشل الحل القومى لمأزق الوحدة والنهضة القومية العربية ، القول بذلك ينطوى على مغـالطـات تتحدى الواقع والتاريخ .

وهنا ينبع السؤال الجوهرى ، الذى ينبغى الإجابة عليه ، وهو : **هل تسببت هـذه العوامل الثلاثـة ، فى الانهيـار الكامـل للمشروع القـومى النـاصرى ، يستـدعى البحث عن مشروع بديل ؟**

المواجهة الاستعمارية للمشروع القومى الوحدوى

٢

هل يمكن التسليم بأن انهيار الوحدة المصرية السورية عام ١٩٦١ . وهزيمة حرب يونيو عام ١٩٦٧ ، وانتصار الثورة المضادة منذ منتصف السبعينيات . يعنى انهيار المشروع القومى العربى الوحدوى لثورة ٢٣ يوليو ؟

وأبدأ بفشل الوحدة المصرية السورية .

ولكن قبل الإجابة على هذا السؤال الكبير ، ينبغى التأكيد على عدد من الحقائق الهامة ، وهى :

أولا : ان النضال القومى العربى من أجل الوحدة والحرية . ومواكبة أحدث ماوصل إليه المتقدمون فى شتى الميادين العلمية ـ أى النهضة الشاملة ـ يجرى فى ظروف بالغة التعقيد . تختلف إختلافا شاسعا عن ظروف حركات التوحيد القومى فى شتى قارات العالم بسبب الظروف الجغرافية . والسياسية ، والنفطية ، لهذه البقعة الفريدة من العالم .

ثانيا : ان وطننا العربى يتميز بظهور نوع جديد وخطير من الاستعمار هو الاستعمار الصهيونى التوسعى .. الذى يخطط فى مراحله الأولى لإمتداده من فلسطين الى النيل الى الفرات وينفذ مخططه وفقا لسياسة الخطوة خطوة التى نسبت ظلما الى هنرى كيسنجر ، أحد أخطر المخططين للمشروع الصهيونى ، رغم موضعه الرسمى كوزير خارجية سابق للولايات المتحدة ، وأستاذ مرموق فى العلوم السياسية .

وذلك يعنى رفض النظريات القائلة بأن اسرائيل مجرد جسر أوروبى فى الوطن العربى .. وظيفته الرئيسية هى حماية المصالح الاستعمارية .

لم يعد من الممكن قبول هذا المفهوم ، بعد وضوح الهدف الحقيقى من وجود هذا الجسم الغريب فى وطننا العربى .. الذى استطاع خلال أقل من نصف قرن ، أن يضاعف مساحة الأراضى العربية التى يسيطر عليها . مما يعنى ، أنه ليس مجرد اغتصاب ، واستعمار . أو استيطان لفلسطين . بل هو استعمار له خصائصه المميزة يستهدف الوطن العربى كله .. خطوة خطوة .. بالتحالف مع قوى الهيمنة الاستعمارية فى العالم .. ووفقاً لسياسة اتفاق المصالح ، واقتسام الغنائم ، وعلاج التناقضات بين المشروعين الاستعماريين ، الاسرائيلى والغربى ، بما يضمن رعاية مصالح الطرفين .

ثالثا : ان مشروع إنجاز الوحدة العربية ، يصطدم بمشاكل إقليمية بالغة التعقيد ، لاتقف عند حدود الفارق فى مستوى التطور الاقتصادى والاجتماعى لكل قطر عربى ، بل تمتد إلى فروق جوهرية من حيث الفقر أو الثراء .

وتلك نقطة هامة . يلعب عليها أعداء الوحدة العربية بذكاء . ويستخدمون أسوأ الأساليب بما فى ذلك عن « أطماع » الدول العربية « الفقيرة » فى الثروة البترولية للدول العربية « الغنية » !!

ومن جهة أخرى ، فإن الدعوة القومية قد تلقى استجابة فورية من الشعوب . لكنها تجد مقاومة من بعض الفئات الاجتماعية ، وخصوصا كبار الرأسماليين المرتبطين بالدول الاستعمارية .

وأخيراً فإن وجود أقليات قومية ، ودينية ، ووجود قسمات وطنية مميزة لكل بلد

عربى على حدة ، يضاعف من تعقيد هذه القضية .

فى إطار هذه العوامل مجتمعة . ومتفاعلة . يمكن الإجابة على السؤال الكبير .. وهو : **لماذا فشلت الوحدة المصرية السورية ، والى أى حد ساهم هذا الإخفاق فى تراجع هذه العملية ؟**

والواقع أن الأسلوب الذى أنجزت به هذه الوحدة ، حكم عليها مقدما بالفشل .. وهو أسلوب جاء فى صورة مخالفة لما كان يريده جمال عبد الناصر . وتلك مشكلة سأعود إليها فى فصل قادم . لكن القضية الهامة فى هذه العجالة ، هى أن فشل هذه الوحدة ، يعود بالدرجة الأولى إلى التركيز الاستعمارى ، بروافده المتعددة . القديمة ، والحديثة ، والصهيونية . مثلما يعود أيضا إلى تعقيد خريطة الثراء والفقر فى عالمنا العربى . وخريطة الأوضاع الطبقية بأشكالها المتعددة والمعقدة .

من أعماق هذه المنابع يمكن فهم أسباب هذه الظاهرة . وليس من خارجها .. ولا من خلال الفكر النظرى المجرد ، الغارق فى متاهات بعيدة عن أحداث الواقع والتاريخ .. والعاجز عن الرؤية العينية ، واستخلاص دلالتها ، بدلا من محاولة «حشر» التاريخ والواقع فى قوالب فكرية جاهزة ، ثم تشكيلها ، لتلائم جميع الظواهر .. بل ومعظم أحداث التاريخ المتشابهة .. فيقال ببساطة تدعو إلى الاشفاق ، إن المشروع القومى الناصرى فشل فى تحقيق الوحدة العربية ، بدلا من أن يقال إن الطريق الوعر الجديد . الذى لم يطرقه أحد من قبل ، كان يحتاج إلى رائد جرىء يعبر مسالكه الصعبة ، حتى لوفقد اتجاهه فى البداية ، ليقول لمن يأتى بعده : من هنا يمكن السير فى هذا الطريق .

والواقع أن فشل هذه الوحدة ، لم يترتب عليه بداية انهيار المشروع القومى الوحدوى .. بل أن العكس قد يكون صحيحاً ، فرغم مرارة الانفصال وما عبر عنه - ظاهريا - من بداية هزيمة جمال عبد الناصر ومشروعه القومى « الاسطورى » . كما صورته الدعاية المعادية .فإن ماحدث بعد الانفصال ، لايتفق إطلاقاً مع نظريات ، أو أحلام بداية الانهيار .

ذلك أن المرحلة التى أعقبت الانفصال ، شهدت قفزة كبرى فى الميدان الفكرى والواقعى ، تجسدت فى صورتين بارزتين . **ظهور ميثاق ، العمل الوطنى ، وهو الوثيقة التى سنعود إليها كثيراً فى فصول قادمة ، والمعبرة عن أول صياغة للأسس النظرية للمشروع القومى الناصرى** ، بعد أن اقتصرت المراحل السابقة ، على مواجهة التحديات المتتالية ، بالاسترشاد بمنهج « التجربة والخطأ » كضرورة لعملية

ثورية تشق طريقها وسط مسالك متعددة ومعقدة ، مثلما فعلت الثورة الصينية فى المراحل الأولى ، إلى أن وصلت فى النهاية إلى ماأطلق عليه اسم : **نظرية الثورة الصينية** .

بعد الميثاق ، انفجرت الثورة القومية فى اليمن ، ثم برزت القوى القومية من جديد ، فى العراق ، وسوريا ، ليبدأ الحوار من جديد حول الوحدة العربية بين القيادة الناصرية من جهة . وقيادة حزب البعث فى سوريا والعراق من جهة أخرى .

بعدها جاءت مرحلة مؤتمرات القمة العربية ، لمواجهة الخطر الاسرائيلى ، أى أن الانفصال السورى عن الوحدة ، لم يترتب عليه - كما يظن الكثيرون - بداية الجذر الوحدوى فى الوطن العربى ، بعد صعود المد الوحدوى إلى ذروة إنتصاراته .

من الصعب إذن ، الاستناد إلى هذه النكسة ، لتفسير بداية انهيار المشروع القومى الناصرى ، ومن المستحيل اصدار هذا الحكم المتعسف ، بعيداً عن الأحداث الواقعية التى شهدها العالم العربى ، بعد نكسة الانفصال .

إن الثورات أو المشاريع القومية الكبرى ، لابد أن تتعرض لنكسات وهزائم مؤقتة . وحركات التحرر الوطنى فى جميع أنحاء العالم ، ذاقت حلاوة الانتصار ، ومرارة الهزيمة مرات ومرات .. حتى تمكنت فى نهاية الأمر من تحقيق الانتصار النهائى . والعنصر الرئيسى الذى يسهم دائما فى تحقيق النصر النهائى ، هو الاتصال بين حلقاتها وأجيالها .. وليس الانقطاع أو الانفصال . هذا العنصر الجوهرى هو أحد مفاتيح النصر .

أثناء الحرب العالمية الثانية ، اكتسحت الجيوش النازية والفاشية والعسكرية اليابانية ، الكثير من البلاد فى أوروبا وآسيا وأفريقيا واستطاعت احتلال فرنسا كلها ، وأجزاء كبيرة من الاتحاد السوفيتى . وكانت نكسة هائلة لهذه البلاد . لكن قادة الفكر والثقافة والمقاومة فى العديد من الدول التى عاشت مرارة الاحتلال النازى والفاشى . لم تنفصل عن حركة الصراع الحى ، لتعقد الندوات وتطلق الدراسات بحثا عن « مشروع » للخلاص من هذه النكسة ، بل امتزجت بالجماهير . وأشعلت فى أعماقها روح المقاومة ضد هذه النكسة ، ومن خلال التفاعل الحى مع الواقع الجديد . رغم مرارته ، توصلت إلى « الخطط » العملية لرفضه ومقاومته ، وتمكنت فى النهاية من الانتصار عليه .

ولاشك أن قوى المقاومة الوطنية فى أوروبا ، فى فرنسا ، وبولندا ، ويوغوسلافيا وغيرها ، التى واصلت المقاومة أثناء الاحتلال النازى ، اعتمدت على القلب النابض الذى

بدأ فى الخفقان منذ ظهور النازية فى أوروبا .. والمتمثل فى الجبهات التى تكونت ضد النازية ، ومن أبرز أمثلتها ، الجبهة الشعبية فى فرنسا . لذلك لم تكن مقاومة الاحتلال النازى جديدة أو غريبة .. إنما اعتمدت على عنصر الاتصال بين المشروع الأصيل لمواجهة النازية منذ بلوغ أخطارها فى ألمانيا ، واستمرار هذا المشروع أثناء الاحتلال النازى .. بعد صياغة الخطط العملية التى تتناسب مع الظروف المتغيرة الجديدة .

وذلك يدعونا إلى الانتقال إلى العنصر الثانى ، الذى يقال إنه المعبر الأكبر عن هزيمة وانهيار المشروع القومى .. أى هزيمة حرب ١٩٦٧ .

لقد انهزمت فعلاً القوات المصرية والسورية والأردنية .. وتعرض المشروع القومى العربى لأزمة خطيرة .. انعكست آثارها على الفكر والوجدان العربى بصورة خطيرة . لكن القيادة الناصرية سرعان ما أفاقت من هذه الضربة . وبدأت بعد أيام قليلة من الهزيمة ، فى الاعداد للمعركة الجديدة ، مستندة إلى عنصر الاتصال والمقاومة .. ومدركة للفروق الجوهرية . بين هزيمة حرب كاملة . وبين الهزيمة فى إحدى جولات حرب لم تنته . الهزيمة تعنى الاستسلام لشروط العدو . مثلما حدث لألمانيا النازية ، واليابان العسكرية . والفاشية الايطالية .

لم يعترف الحلفاء أثناء الحرب العالمية الثانية بانتصار ألمانيا فى الحرب . أثناء اكتساح جيوشها لدول أوروبا ، بل تحركوا من منطلق أن هزيمة جولة أو جولات فى حرب ضارية ، لايعنى الهزيمة الحربية الكاملة .

وبالفعل تحقق النصر فى النهاية . واستسلمت ألمانيا واليابان دون قيد أو شرط . عندئذ أصبح مفهوم الهزيمة واضحاً .

ونفس الأمر ينطبق على جولات الحرب العربية الاسرائيلية ، لقد شهدت جبهة قناة السويس . بعد أيام معدودة من نكسة ١٩٦٧ ، اشتعال المعركة فى رأس العش ، ودحر القوات الاسرائيلية التى حاولت السيطرة على هذا الموقع . وقبل أن ينتهى عام ١٩٦٧ ، كانت البحرية المصرية قد أغرقت المدمرة الاسرائيلية « إيلات » وقتل جميع أفراد طاقمها المكون من عشرات الضباط والجنود .

وبعد ذلك بدأت حرب الاستنزاف ، التى استمرت من عام ١٩٦٨ الى ١٩٧٠ .. خلالها تم تدريب القوات المصرية على العبور ، والوصول إلى المناطق المحتلة فى سيناء ، وقتل مجموعات من الاسرائيليين ، وأحيانا العودة بعدد من الأسرى .

ثم رحل القائد العظيم جمال عبد الناصر . بعد أن أشرف بنفسه على إعادة بناء القوات المسلحة ، واشترك فى وضع المعالم الرئيسية للمعركة الكبرى .

لكن القدر لم يمهله . مات قبل أن يشهد ثمرة إعداد القوات المصرية لمعركة التحرير الكبرى . وجاء السادات ليستفيد من هذا الإعداد . وتندلع حرب أكتوبر المجيدة . حيث استطاع المقاتلون المصريون فى جبهة سيناء ، والمقاتلون السوريون فى جبهة الجولان . توجيه ضربة عنيفة لغرور وصلف العسكرية الاسرائيلية العدوانية .

لم تكن هزيمة ١٩٦٧ إذن ، أكثر من خسارة جولة فى حرب طويلة لم تحسم بعد . بل أن هذه الجولة لم تتوقف كما أثبتنا ، بل استمرت الحرب فى صور متعددة حتى موت جمال عبد الناصر ، رغم قبوله لفترة هدنة صغيرة ، استفاد منها فى بناء قواعد الصواريخ حول قناة السويس .

ثم نصل إلى العنصر الثالث ، وهو الثورة المضادة الضاربة بظلامها فى عالمنا العربى .

يقول أنصار انهيار المشروع القومى الناصرى : إن التحول الجذرى للاقتصاد المصرى من الاستقلال أثناء حقبة عبد الناصر ، إلى التبعية بعد موته ، وظهور حقبة السيطرة النفطية ، أى تغلب مفهوم **الثروة** ، على مفهوم **الثورة** ، وبروز اسرائيل كقوة تملك التفوق الاستراتيجى الحربى لصالحها بلا منازع ، بالإضافة إلى ظواهر أخرى سلبية ، إنما يعنى توجيه الضربة الثالثة والأخيرة للمشروع القومى الناصرى .

وتلك أحلام ، أو افتراضات ، لاتنهض على أسس حقيقية .

فالفئات أو القطاعات العربية التى راهنت على أبدية العصر الذهبى للنفط . بدأت تعيد النظر فى هذا الرهان الخاسر ، بعد تدهور أسعار النفط ، المعبر عن بداية النهاية لهذه الحقبة التى أحدثت الكثير من الأحلام الوهمية ، والتشوهات الاجتماعية .

والذين اندفعوا خلف أوهام اللحاق بالركب الحضارى الغربى ، أى الانتاج بلاحدود ، والاستهلاك بلا حدود ، عن طريق المزيد من التبعية للقوى المهينة على النظام الاقتصادى الدولى ، تبددت أوهامهم ، بعد اكتشاف استحالة اللحاق بالمتقدمين فى الغرب عن طريق التبعية لهم .

أى أن البنيان الذى استندت إليه الثورة المضادة ، يتآكل من الداخل ، وتكتشف الجماهير يوما بعد يوم ، فساد طريق الثورة المضادة ، وتقترب أكثر فأكثر من قضية النهضة العربية المستقلة . المستندة إلى الأشكال الملائمة والمتطورة للوحدة .

كما أن السلطة الحالية في مصر ، رغم الألغام الخطرة التى ورثتها عن العصر الساداتى الارتدادى ، سوف تكتشف هى الأخرى استحالة تحقيق النهضة المنشودة . فى ظل أزمة الديون المتفاقمة . أو الاستجابة لضغوط الفئات الرأسمالية الطفيلية التى نمت وترعرعت أثناء الحقبة الساداتية .

ومن هنا ندرك الضرورة التاريخية والعملية للعودة إلى الخط القومى الناصرى للوحدة .. وتحويل هذه الضرورة إلى واقع حى ، بفضل النضال الواعى للقوى القومية فى جميع الأقطار العربية .. وبفضل إختيار الأشكال التضامنية المناسبة بين الدول العربية رغم جميع الخلافات .

وقد يبدو أننا نتناول القضايا النظرية التى يراها البعض ، معقدة ومركبة ، وتشكل إتساقاً ، أو منظومات ، أو أيديولوجيات ، تحتاج إلى تأصيل ، وتعميق إلى آخر هذه المصطلحات ، بأسلوب عملى يفتقر إلى الصياغة النظرية ، وذلك ما أقصده بالتحديد فى بداية هذه الدراسة ، وذلك أن عرض الأسس التى يستند إليها المشروع القومى الناصرى ، يستلزم أولا تبديد الضباب المحيط بهذا المشروع .

ماهى أبرز معالم المشروع القومى الناصرى وكيف نستفيد من عناصره الحية ؟

●●●

ينابيع الفكر القومى الناصرى

٣

ماهى الخصائص الرئيسية للمشروع القومى الناصرى ؟

من الصعب الإجابة على هذا السؤال ، بدون العودة أولا إلى الجذور . أو الينابيع ، التى استمد منها هذا المشروع وجوده ، ومن أعماقها تحرك ، وتطور . وتفاعل مع التغيرات الجارية فى وطننا العربى ليصل فى النهاية إلى طابعه المميز النابع من جذور القومية العربية ، ومن واقع الممارسة الحية .

ذلك أن ثورة ٢٣ يوليو لم تبدأ من فراغ .. بل إنطلقت من أعماق مجتمع محدد ، هو مصر ، تحمل بصماته ، وهمومه ، وتطلعاته . وكما يقول جمال عبد الناصر فى كتاب فلسفة الثورة :

وقصص كفاح الشعوب ليس فيها فجوات .. يملؤها الهباء . كذلك ليس فيها مفاجات تقفز إلى الوجود دون مقدمات . إن كفاح أى شعب ، جيلا بعد جيل ، بناء يرتفع حجراً فوق حجر .. وكما أن كل حجر فى البناء ، يتخذ من الحجر تحته قاعدة يرتكز عليها ، كذلك الأحداث فى قصص الشعوب . كل حدث منها هو نتيجة لحدث سبقه ، وهو فى نفس الوقت مقدمة لحدث مازال فى ضمير الغيب .

هذه الفقرة من كتاب فلسفة الثورة ، تحمل دلالات هامة أبرزها ، صعوبة أو استحالة فهم أى حدث كبير فى تاريخ أى شعب ، بدون معرفة ماسبقه من أحداث .

والفكر الذى صاحب ثورة ٢٣ يوليو ، وتطور معها ، لم ينبع من فراغ . فالعلاقة بين الفكر والواقع ، يصعب انكارها أو تجاهلها . والتأكيد عليها الآن ، لايعنى مجرد تكرار بديهيات ، أو مسلمات . بل ضرورة لفهم خصائص الفكر الناصرى ، والأسس التى استند إليها فى تحديد مواقفه من جميع القضايا التى شغلت وتشغل الآن معظم المفكرين العرب .

عندما قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . كانت مصر ومعها الوطن العربى كله ، تموج بتيارات فكرية وسياسية وعقائدية عديدة . كل تيار يتميز برؤيته الخاصة .. النابعة من توجهاته الرئيسية . ويطرح فى الساحة المصرية ـ مشروعه . أو برنامجه ـ المتضمن فلسفته لتحرير وتطوير المجتمع ، وتحقيق العدالة الاجتماعية للطبقات الشعبية .

وكان لهذه التيارات رؤيتها للهوية المصرية ، وعلاقاتها بالأمة العربية ، والدول الاسلامية . **وحول مضمون هذه الهوية ، وهل هى مصرية نابعة من جذور فرعونية ، أو عربية تنتمى إلى الوطن العربى ، أو إسلامية خالصة ترفض كل أشكال القومية .**

والواقع أن بذور هذه التيارات ، كانت قد غرست فى التربة المصرية قبل ثورة يوليو بحوالى قرن ونصف . أى منذ تاريخ مصر الحديث ، الذى بدأ بحدثين كبيرين كان لهما أعمق الآثار فى ظهور هذه التيارات ، **وهما الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت فى نهاية القرن الثامن عشر ، ونشأة دولة محمد على عام ١٩٠٥ .**

وبسبب الأهمية العظمى لهذين الحدثين ، فإن جمال عبد الناصر تحدث عنهما فى كتاب فلسفة الثورة . الذى ظهر فى عام ١٩٥٣ ، أى بعد عام واحد من ثورة يوليو . الأمر الذى يؤكد مدى وعيه بالعلاقة بينهما . وبين مايموج به المجتمع المصرى من تيارات .

أولاً : الحملة الفرنسية

يقول جمال عبد الناصر فى كتاب فلسفة الثورة : « **جاءت الحملة الفرنسية ، وتحطم الستار الحديدى الذى فرضه المغول علينا ، وتدفقت أفكار جديدة .. وتفتحت لنا آفاق لم يكن لنا بها عهد « لقد كنا - فى رأيى - أشبه بمريض قضى زمنا فى غرفة مغلقة ، واشتدت الحرارة داخل الغرفة ، حتى كادت أنفاس المريض تختنق . وفجأة هبت عاصفة . حطمت النوافذ والأبواب . وتدافقت تيارات الهواء البارد ، تلسع جسده المريض ، الذى مازال يتصبب عرقا . لقد كان فى حاجة إلى نسمة هواء . فانطلق عليه اعصار عات .. هذا هو ماحدث لمجتمعنا تماماً .**

والاعصار الذى يتحدث عنه عبد الناصر فى هذه الفقرة ، هو مااصطلح على تسميته الآن **بالصدمة الحضارية ..** الناتجة عن « تحطيم الستار الحديدى » الذى أسدل على مصر قرابة خمسة قرون .

لقد جاء مع الحملة الفرنسية - ١٧٩٨ - جماعة من العلماء الفرنسيين . فى تخصصات علمية مختلفة . فكان مما صنعه أولئك العلماء . أن استدعوا كبار علماء الأزهر الشريف ، لاطلاعهم على ماوصل إليه علمهم من تقدم .

كانوا يستدعون العلماء جماعة بعد جماعة ، ليطلعوهم على عجائب عصر الثورة الصناعية . التى كانت حتى ذلك الحين ، مجهولة جهلاً كاملاً لسكان « الستار الحديدى » من المصريين .

وفى إحدى جولات هذه العروض . اختار العلماء الفرنسيون أسلوبا غريبا .. إذ أوقفوا فريقا من علماء الأزهر صفا ، مشبكى الأيدى ، كل واحد منهم يمسك بيد جاره ، ثم مسوا أحدهم بسلك مكهرب ، فسرت الكهرباء فى جميعهم .. عندئذ تعاظمت الدهشة والعجب .. لكن أحد الشيوخ تملكه الغيظ من تلك الآلاعيب ، فقال لهم مامعناه : **هل فى علمكم الجديد مايجعل إنسانا موجوداً هنا . وموجوداً فى بلاد الغرب فى وقت واحد ؟**

فنظر إليه علماء الحملة الفرنسية بدهشة ثم أجابوا : **إن هذا محال . فرد الشيخ قائلا : لكن ذلك ممكنا فى علومنا الروحية .**

والمواجهة بين عصر الثورة الصناعية . وعصر التخلف والخرافات « والكرامات » الذى

كان يسود مصر فى ذلك الحين ، تجسد فيا قدمه علماء عصر الثورة الصناعية من « أعاجيب » الكهرباء ، ومارد به الطرف الآخر من خرافات بلد ، انعزل أو سجن ، عدة قرون .

تلك هى الصدمة الحضارية . ومنها ، أى منذ هذه اللحظة ، نبعت جذور مايطلق عليه اليوم ، **إشكالية الأصالة والمعاصرة** . بعد ظهور تيارين متعارضين ، **الأول أفزعه التقدم المذهل للغرب ، فقررالهروب من وجهه . وصب اللعنات عليه . والانكفاء على التراث القديم ، يحتمى به ويبحث من خلاله عن خلاص لمشاكل العصر .**

والتيار الثانى ، هو الذى استفاد من الصدمة الحضارية ، واستجاب لتحدياتها ، لكن استجابته اتخذت طابع الانبهار بالحضارة الغربية ، والاندفاع نحوها ، ونسيان تراثه الثقافى وجذوره القومية .

أما التيار الثالث ، فإنه لم يهرب **من تحدى الحضارة الأوروبية ، ولم يستوعب داخل مكوناتها . بل حرص على الاستفادة منها ، دون تفريط فى تراثه التاريخى المتميز عن الحضارة الغربية .**

ثانيا : دولة محمد على :

وإذا كانت الصدمة الحضارية قد أنبتت جذور التيارات المتصارعة الآن ، من سلفية نصوصية جامدة متعصبة ، وتغريبية ضالة منفصلة عن أصولها الحضارية المتميزة . وغير ذلك من التيارات . فإن ظهور دولة محمد على - ١٩٠٥ - صاحبة ولادة الشعور الوطنى «بالمصرية» وبداية الصراع الذى لم يهدأ حتى اليوم ، بين دعاة **« القومية المصرية » القائمة بذاتها . ودعاة الجامعة الاسلامية الذين يرفضون كل مفاهيم القومية ،** ويحلمون بعصر جديد للخلافة الاسلامية .

وبين هذين التيارين ، تحرك جنين القومية العربية ، ثم برز وتطور بعد ذلك .

وقد يسأل البعض ، **ماهى العلاقة بين نشأة دولة محمد على ، وبين نشوء ونمو وتطور الشعور الوطنى بالمصرية . وماواكبه من مشاعر ومفاهيم أخرى ؟**

والاجابة تنحصر فى الآتى : أن نشأة دولة محمد على ارتبطت بظاهرتين متلازمتين : **هما ظهور حركة الاستقلال السياسى لمصر عن السلطنة العثمانية . وبداية**

حركة التمييز الوطنى المصرى عن الخلافة الدينية العثمانية .

وكل قراءة دقيقة لتاريخ مصر الحديث ، تكشف عن التلازم الواضح بين بداية تكون الشعور الوطنى المصرى ، وبين بناء الدولة الحديثة علىعهد محمد على .

ولاشك أن مقاومة المصريين للحملة الاستعمارية البريطانية عام ١٩٠٧ ، والانتصار عليها .. ثم اضطرار محمد على إلى الاقدام على تجنيد المصريين ، أى بداية « تمصير » الجيش بعد عزلة طويلة للمؤسسة العسكرية التى ظلت أجنبية طوال قرون عديدة عن المصريين .

الصدمة الحضارية أثناء الحملة الفرنسية . وظهور الشعور القومى المتميز لأول مرة فى مصر ، بعد ظهور الدولة المستقلة عن الهيمنة العثمانية ، خلقا أعمق الآثار فى تاريخ مصر . ومن منابعها . ظهرت التيارات الفكرية المتعددة ، بل ومن هذه البداية نفسها ، يمكن فهم الأصول الخفية لما يجرى الآن من صراع بين مختلف التيارات السلفية ، والمجددة . والمعاصرة ، والقومية ، وغيرها .

وكان من الطبيعى أن ينمو تيار الوطنية المصرية ، نتيجة للصراع ضد الاستعمار الفرنسى ، والبريطانى ، وأن يتحول السخط الشعبى ضد الاستعمار العثمانى ، إلى سخط ضد الاستعمار البريطانى ، الذى حل مكانه ، بعد دخول الامبراطورية العثمانية مرحلة الانحدار .

وفى هذا يقول : **جمال عبد الناصر « لقد ظللت فترة أحاول أن أتفهم عبارة كثيرا ماهتفت بها وأنا طفل صغير ، حينما كنت أرى الطائرات فى السماء . كنت أصيح : « ياربنا ياعزيز .. داهية تاخذ الانجليز » .**

ولقد اكتشفت فيما بعد ، أننا ورثنا هذه العبارة عن أجدادنا ، ولم تكن منصبة على الانجليز . وإنما حورناها نحن ، أو حورتها الرواسب الكامنة فينا والتى لم تتغير وإن تغير اسم الظالم . فقد كان أجدادنا يقولون « يارب يامتجلى .. اهلك العثملى » .

وبنفس الروح التى لم تتغير . جرى المعنى على لساننا ، وإن تغير اسم الانجليز ، باسم العثمانيين ، طبقاً للتغيرات السياسية التى توالت على مصر بين العهدين » .

وما من شك فى أن ظهور الجيش الوطنى المصرى الأول فى العصر الحديث ، كان خطوة سياسية بالغة الأهمية .. أنهت عصور القطيعة بين المؤسسة العسكرية والشعب ..

رغم أن قيادة هذا الجيش عند بداية تكوينه ، ظلت أجنبية .. ثم سمح بترقية الجنود إلى رتبة «اليوزباشى» ثم « الصاغ » كحد أقصى .

وكان للانتصارات التى حققها هذا الجيش فى عصر محمد على ، وتحت قيادة ابنه ابراهيم باشا ، دور كبير فى خلق مشاعر العزة الوطنية ، تغلغلت فى وجدان المصريين تدريجياً . بعد قرون طويلة من الهزائم والكوارث والاحباط الوطنى .

ثم انعكس هذا الشعور الوطنى فى كتابات طلائع المفكرين المصريين .. ففى كتاب « مناهج الألباب » لرفاعة الطهطاوى ، نجده يقول « **حب الأوطان على عظم الحب وكرم الادب أبهى عنوان .. وهو فضيلة جليلة لايؤدى حق الوفاء بها إلا من حاز الشمايل النبيلة** » .

وكتب الشيخ محمد عبده يقول « **وجب على المصرى حب الوطن ، فهو سكنه الذى يأكل فيه هنيئاً ، ويشرب مريئا ، ويبيت فى الأهل أمينا ، وهو مقامه الذى ينسب إليه ، ولايجد فى النسبة عاراً ، ولايخاف تعييراً . وهو موضع حقوقه وواجباته التى حصلت له بما أوضحناه من دخوله دور الحياة السياسية** ».

وكان لهذه الأجواء الجديدة ، من الشعور « بالوطن المصرى » والولاء له . بعد قرون من الولاء « للوطن العثمانى » ، ردود فعل معاكسة .. تمثل فى اتجاه **الجامعة الاسلامية** ، والتى كان السلطان العثمانى عبد الحميد ، وجمال الدين الأفغانى ، بل والشيخ محمد عبده فى مرحلة من حياته من أبرز دعاتها .. وهو الاتجاه الذى تطور بعد ذلك إلى **مفهوم الانتماء الاسلامى ، أو الهوية الاسلامية ، واتهام الوطنية والقومية بالشعوبية ، وخدمة أهداف أعداء الاسلام** .

لكن ظروف المواجهة الضارية ضد الاستعمار البريطانى فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، فرضت على التيارات الوطنية فى مصر . تنمية روح الانتماء الوطنى . بما لايتعارض مع الروح الاسلامية الحقة .

ومن هنا يمكن فهم وتفسير برنامج الحزب الوطنى للثورة العرابية خلال الفترة من ١٨٧٩ ـ ١٨٨٢ ، **حيث تضمن أهدافاً وطنية .. بل ونص صراحة على أنه حزب وطنى لجميع المصريين ، مسلمين وأقباط ، وليس حزبا طائفياً لقطاع من المصريين ـ أى المسلمين ـ دون غيرهم .**

وبعد عرابى ، جاء مصطفى كامل . ليقول جملته الشهيرة « **لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا** » .. رغم أن مصطفى كامل كان يؤيد الجامعة الاسلامية تحت لواء السلطان العثمانى ، لاعتقاده أنها إحدى الوسائل الشرعية لاستقلال مصر عن بريطانيا .. أى لأسباب **تكتيكية عملية .. وليس عن اعتقاد حقيقى** . وليس أدل على هذه الحقيقة من قوله « **رمانا الطاعنون بأننا نريد أن نخرج الانجليز من مصر لنعطيها لتركيا كولاية عادية .. أى أننا نريد تغيير الحاكين ، لاطلب الاستقلال والحكم الذاتى .. هذه التهمة مسبة للمدنية والمتدينين ، وقضاء على الأمة المصرية بأنها لاترق أبداً ولاتبلغ مبلغ غيرها من الشعوب** » .

واستخدام مصطفى كامل لتعبير « الامة المصرية » خير تعبير عن موقفه الفكرى الحقيقى من قضية « الجامعة الاسلامية » والوطنية المصرية .

وكانت ثورة ١٩١٩ بقيادة سعد زغلول التعبير الكامل عن انتصار الروح الوطنية المصرية ، وانحسار نفوذ دعاة الجامعة الاسلامية .

ومنذ منتصف الثلاثينيات ، وطوال الأربعينيات ، وبداية الخمسينيات من هذا القرن ، انقسمت التيارات الرئيسية فى الفكر المصرى ، والتى أثناء المواجهة الحضارية مع الحملة الفرنسية ، وخلال وبعد نشأة دولة محمد على ، وتفرعت إلى اتجاهات متعددة .. وظهرت جذور الفكر القومى العربى فى مصر ، يواجه فكر القومية المصرية ذات الاصول الفرعونية ، أو البحر أوسطية ، و يواجه أيضا التيارات السلفية النصوصية التى اعتبرت « القومية » بضاعة أوروبية غريبة عن روح الاسلام .

وكان ظهور وتبلور الاتجاه الليبرالى بتوجهاته نحو الغرب الرأسمالى ، والاتجاه الاشتراكى العلمى الذى يربط بين تحرير الوطن من الاستعمار ، وتحرير المواطن من الاستغلال الاجتماعى ، إضافة هامة لتيارات الفكر المصرى . وجميع هذه التيارات بلا استثناء ، أحدثت آثارا عميقة فى تنظيم الضباط الأحرار ، وقيادة ثورة ٢٣ يوليو ، فهى الينابيع الأولى التى انطلق منها فكر جمال عبد الناصر ، ثم تجاوزها وصولاً إلى فكره الأصيل .

●●●

التكـوين الفكـرى لقـيادة الثــورة

٤

تناولت فيما سبق أبرز الاتجاهات الفكريـة التى كانت تسود المجتمع المصرى ، قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، والمنابع التى انبثقت عنها هذه الاتجاهات ، والتى مـازالت حتى اليوم تثير الجـدل والخـلاف بين المثقفين العرب ، وتحـدث الشقـاق والانقسـام فى التنظيمـات المهنيـة ، والنقابات العمالية ، والاتحادات الطلابية ، فى عالمنا العربى .

فمن الصعب فهم الصراع بين الاتجاه العلمـانى ، والاتجــاه الــدينى فيما يتعلـق بــأسس الدولة ، أو الخلاف بين السلفيين النصوصيين القـدامى والجـدد ، وبين الاتجـاهـات المعـاصرة بمختلف ألـوانها ، بـدون العـودة الى الجـذور التى نبعت منهـا ، والتى تنـاولتهـا فى الفصل السابق .

ولكى تكتمل معالم هذه الصورة . ينبغى إلقاء بعض الأضواء على الأحزاب السياسية التى امتلأت بها الساحة المصرية قبل ثورة يوليو ، باعتبارها التجسيد التنظيمى الذى عبرت من خلاله هذه الاتجاهات عن أفكارها .. وهى الأحزاب التى شكلت المفاهيم العامة لتنظيم الضباط الأحرار ، ولقيادة هذا التنظيم .. أى مجلس قيادة الثورة .

١ ـ حزب الوفد :

وحزب الوفد ، كان أكبر هذه الأحزاب . وأكثرها جماهيرية . اكتسب نفوذه من دوره فى ثورة ١٩١٩ ، بقيادة زعيمه الأول ومؤسسه سعد زغلول . كما حافظ هذا الحزب على قدر كبير من جماهيريته بعد موت سعد زغلول ، بفضل احتضانه ودفاعه عن القضيتين الرئيسيتين لثورة ١٩١٩ ، هما : **الاستقلال و الدستور ، أى التحرر من الاستعمار ، وسيادة النظام الديمقراطى .**

وفيما عدا ذلك فإن حزب الوفد ، كان حزبا مصريا ليبراليا بصورة أساسية . يضم بين صفوفه جبهة عريضة متناقضة ، تشمل جناحاً من كبار ملاك الأرض ، والرأسمالية الوطنية ، والمهنيين .

وكان من أبرز معالم حزب الوفد ، حرصه على الوحدة الوطنية المصرية . بقطاعيها المسلمين والأقباط .. والوعى بأهمية هذه الوحدة فى صراعه ضد الاستعمار ـ بأساليبه الخاصة ـ وضد استبداد النظام الملكى المعادى للديمقراطية . والذى استعان بمجموعة من أحزاب الأقلية التى انسلخت عن الوفد ، ورضيت بالتعاون مع النظام الملكى ، لمواجهة النفوذ الجماهيرى للوفد .

ولأن هذا الحزب كان من حيث الجوهر ، مصريا ليبراليا ، فإن توجهاته الرئيسية كانت محصورة فى نطاق مصر ، رافضا لمفهوم الجامعة الاسلامية من ناحية ، ولمفهوم القومية العربية من ناحية أخرى . وإن كان لايرفض صيغة التضامن والتعاون بين الدول العربية .

٢ ـ حزب مصر الفتاة :

تكون هذا الحزب عام ١٩٣٣ . وعرف باتجاه عربى واضح . عبر عنه برنامجه وإن كان تميز أيضا باضطراب المفاهيم السياسية بين القومية المصرية المتطرفة ، حيث كان يرفع شعار « مصر فوق الجميع » .. يجاوره حديث غامض عن القومية العربية ، والجامعة الاسلامية فى آن واحد ، وإن كان ينظر إليها باعتبارها **عصبة أمم إسلامية أو شرقية .**

والسمة الأساسية لهذا الحزب تمثلت فى استجابته السريعة لما يجرى فى المسرح الدولى .

ففى الثلاثينيات من هذا القرن ، كانت ألمانيا النازية المثل الأعلى له من حيث التقدم الصناعى والعسكرى والروح الوطنية ، وباعتبارها المنافس والعدو للاستعمار البريطانى الذى يحتل مصر .

لكن الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية ، وهزيمة النازية والفاشية والعسكرية اليابانية ، صاحبها انعطافة كبرى فى اتجاه هذا الحزب ، من حيث الاسم والمضمون . فانتشار الأفكار الاشتراكية ، وبروز . الاتحاد السوفيتى كقوة كبرى مناهضة للإستعمار البريطانى ، أدى الى تغيير اسمه ، فأصبح : الحزب الاشتراكى .. **واحتضان أهداف اجتماعية** عبرت عنها جريدته « الاشتراكية » ، أهمها : **الأرض لمن يفلحها .**

أما من حيث الهوية حيث الهوية المصرية . وعلاقتها بالهوية العربية الأم ، فإن موقف الحزب ظل محافظا على توجهاته العربية ، وإن لم تصل الى بلورة المفهوم الواضح للقومية العربية .

٣ ـ جماعة الاخوان المسلمين :

ومن المصادفات التاريخية ، أن فترة الثلاثينيات التى شهدت مولد حزب مصر الفتاة ، رافقها ظهور جماعة الاخوان المسلمين فى مصر التى أسسها المرحوم حسن البنا فى مدينةالاسماعيليةعام ١٩٢٨ ، وظل نشاطها مقصوراً على الجوانب الدينية ، حتى برزت كقوة هامة ابتداء من عام ١٩٣٣ ، الذى شهد مولد صحيفتها .

وإذا كان الطابع الرئيسى لحزبى الوفد ومصر الفتاة . هو الاتجاه نحو العلمانية ، رغم تعاطف الوفد مع النظم الديمقراطية فى الغرب ، وتعاطف مصر الفتاة عند تأسيسها مع ألنظم النازية فى الغرب أيضا ، وتأكيد مفهوم « القومية المصرية » ، فإن اتجاه الاخوان المسلمين سار فى الطريق المعاكس .. أى الرفض لجميع صور الوطنية والقومية ، واحتضان مفهوم الجامعة الاسلامية ، ورفض التشريع الوضعى .. واعتبار حركات التجديد فى السياسة والمجتمع ، محض انحلال والحاد !

وذلك يعنى ، أن تيار الاخوان المسلمين السلفى ، كان الامتداد المتطور لتيار رفض الحضارة الغربية ، وماتوصلت إليه من نظم ديمقراطية ومفاهيم قومية .

٤ ـ الاتجاه الاشتراكى العلمى :

أثناء الحرب العالمية الثانية ، وبعدها مباشرة ، برز فى مصر تيار الفكر الاشتراكى

العلمى .. أو اليسار الماركسى . وهو تيار ولد منقسما موزعاً فى تنظيمات عديدة . ورغم ضعف هذا التيار من ناحية عدد أعضائه ، فإن نفوذه الفكرى كان كبيراً ، وخصوصاً فى أوساط المثقفين .

قدم هذا التيار ، ثلاثة إضافات هامة للفكر فى مصر ، وهى :

أولا : ان التحرر الوطنى من الاستعمار ، ليس نهاية الطريق ، بل لابد أن يرتبط التحرر الوطنى بالتحرر الاجتماعى . أى القضاء على الاستغلال الاقطاعى للفلاحين والاستغلال الرأسمالى للعمال .

ثانيا : ان تحالف النظام الملكى مع الاستعمار والاقطاع والرأسمالية الاستغلالية ، يستلزم ظهور تحالف آخر ، يتمثل فى القوى الوطنية .. من عمال وفلاحين وطلاب ومثقفين . ورأسمالية وطنية .

ثالثا : ان الاستعمار لن يخرج من مصر عن طريق المفاوضات والمساومات .. بل عن طريق الكفاح المسلح .. ومن هنا برز شعار الجلاء بالدماء .

واستطاع هذا التيار احداث تأثير كبير خلال الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية .. وخصوصا عام ١٩٤٦ ، وهو العام الذى شهد تكوين **اللجنة الوطنية للعمال والطلبة** . والتى كانت بمثابة جنين لأول جبهة شعبية متحدة فى مصر ، تتكون من القواعد الشعبية ، بعيداً عن هيمنة الأحزاب المصرية القديمة .

وقررت هذه « الجبهة » أن يكون يوم ٢١ فبراير ١٩٤٦ ، يوم الجلاء ، يوم اضراب شامل لجميع هيئات الشعب وطوائفه . واستجاب الشعب .. وكان ذلك أول إضراب سياسى شامل من نوعه .. وطافت المظاهرات فى كل شوارع العواصم المصرية . واصطدم المتظاهرون بجيش الاحتلال البريطانى فى ميدان « قصر النيل » - التحرير - .

ولقد كان لى شرف الاشتراك فى معارك هذا اليوم التاريخى الذى سقط فيه الكثير من القتلى والجرحى . ولم تذهب هذه التضحيات هباء . بل حققت أول انتصار على المستعمرين . والمتمثل فى جلائهم عن القاهرة والاسكندرية وبعض مدن الدلتا .. لتتركز فى منطقة قناة السويس وحدها .. وتلك هى المرةّ الأولى منذ بدء الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ . التى تتراجع فيها قوات الاحتلال أمام الغضب الشعبى الجماهيرى الكاسح ، وترغم على الابتعاد عن لهيب هذه الجماهير فى المدن الكبرى .

لكن هذه الاتجاهات ، لم تستطع فى هذه المرحلة ، أن تتجاوز الرؤية المصرية ، وأن

تمد بصرها الى الرابطة العميقة بين الوطنية المصرية والقومية العربية .

٥ ـ الحزب الوطنى :

وإلى جانب القوى السياسية السابقة ، كان هناك بقايا حزب مصطفى كامل ومحمد فريد « الحزب الوطنى » ، الذى رفع شعار لامفاوضة إلا بعد الجلاء ، واكتفى به .. ثم اشتركت قياداته مع أحزاب الأقلية المتحالفة مع السراى ، أى الملك وحاشيته .

لكن نهاية الأربعينيات ، وبداية الخمسينيات شهدت تطوراً هاماً ، وهو انقسام هذا الحزب ، وبروز تيار راديكالى بزعامة المجاهد الكبير فتحى رضوان ، ليشكل ماعرف « باللجنة العليا للحزب الوطنى » واصدار صحيفة « اللواء الجديد » .. وتميز باتجاهاته الوطنية المصرية .. مع تعاطف واضح نحو التضامن العربى والاسلامى .

تلك هى الخريطة الحزبية لمصر قبل الثورة .

وينبغى إضافة عنصر هام ، هو أن عامى ١٩٥٠ ـ ١٩٥١ ، شهدا اندلاع موجة من المد الوطنى .. وصلت ذروتها بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ مع بريطانيا ، ثم إندلاع الكفاح المسلح فى منطقة قناة السويس .

وفى غمار هذه الأحداث ، وتحت ضرباتها شعر النظام الملكى والاستعمار بنذر الخطر .. فكانت مؤامرة حريق القاهرة فى يناير ١٩٥٢ ، وما أعقبها من أزمة مستحكمة لقوى النظام القديم .

وهنا نصل الى القضية الجوهرية لهذاالفصل ، وهى أن تنظيم الضباط الأحرار ، قاعدة وقيادة ، لم يكن منفصلاً عن هذه الاتجاهات والأحزاب والأحداث ، بل كان مرتبطا بها أشد الارتباط وانعكس ذلك على أفكار واتجاهات أعضائه .. حيث ارتبط بعضهم بالاخوان المسلمين . أو حزب مصر الفتاة ـ ثم الاشتراكى ـ أو حزب الوفد ، والحزب الوطنى ، كما كان للفكر الاشتراكى اليسارى تأثيره على بعضهم أيضاً .

لذلك لم يكن تشكيل الضباط الأحرار ، سواء فى مستوياته القيادية أو القاعدية ، متجانسا من حيث الايديولوجية أو الانتاء السياسى ، بين صفوفه من كان يتعاطف مع هذا الاتجاه أو ذاك ، أو حتى الانخراط فى الكيان التنظيمى لأحزاب وتنظيمات ماقبل الثورة ، اليمينية واليسارية .. المنادية بالقومية المصرية ، والمتعاطفة مع التضامن العربى ، والرافضة لكل أشكال الوطنية والقومية ، باسم الولاء للاسلام فقط .

ويمكن القول بأن تنظيم الضباط الأحرار ، كان أشبه بالجبهة ، نتيجة لفقدان

التجانس الفكرى والانتماء الحزبى بين أعضائه .

وهنا تبرز الشخصية المتميزة لجمال عبد الناصر .

لقد تعامل فى صباه وشبابه مع الحركة الوطنية .. اشترك فى المظاهرات الوطنية عام ١٩٣٦ التى تطالب بعودة دستور ١٩٢٣ ، والمظاهرات المعادية للاحتلال البريطانى ، مثلما اشترك فى الاحتجاجات المعادية لوعد بلفور .

بل أن عبد الناصر ، كان على صلة وثيقة بمختلف الاتجاهات السلفية والعلمانية ، واليمينية ، واليسارية .

لكنه لم يكن ذلك الطراز التى يمكن أن تستغرقه ، أو تستوعبه . أيديولوجية بعينها . أو يجذبه تنظيم سياسى الى عضويته الدائمة . فالطابع الرئيسى لعقليته ، وهو الاستقلالية ، والتمرد ، والرفض لكل قوالب فكرية ، تعيق حركة تفاعله مع الواقع ، كان السد المنيع الذى حال دون الإنتماء لأى حزب .

والأمر المؤكد ، أن هذه الخاصية أكسبته ألقدرة على قيادة تنظيم الضباط الأحرار ، بانتماءات أعضائه المتنافرة . فكما أشرت من قبل ، فإن التنظيم يضم عناصر ذات توجهات أيديولوجية متعارضة . لكنها جميعا تتفق على الحد الأدنى من المطالب الوطنية ، والتى تمثلت فى المبادىء الستة التى التزم بها الجميع وهى : (١) القضاء على الاستعمار وأعوانه من الخونة المصريين . (٢) القضاء على الاقطاع . (٣) القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم . (٤) إقامة عدالة اجتماعية . (٥) إقامة جيش وطنى قوى . (٦) إقامة حياة ديمقراطية سليمة .

وذلك لايعنى انعدام الفكر والموقف والتوجه الرئيسى عند جمال عبد الناصر قبل الثورة ، بل كان يؤمن بالاتجاه الاسلامى العقلانى للشيخ محمد عبده ، ومتأثراً بتقاليد الحركة الوطنية المصرية الحريصة على الوحدة الوطنية بين المسلمين والأقباط .. وواعيا بالوضع الجغرافى السياسى الفريد لمصر . ومستوعبا للدروس العميقة فى تاريخها القديم والحديث .

وتلك نقطة هامة . لأن كثيرين ممن كتبوا عن الثورة المصرية وقائدها ، تجاهلوا أن جمال عبد الناصر ، كان مدرسا فى كلية أركان الحرب المصرية قبل الثورة . أى أنه كان مدركا للوضع الجغرافى المميز لمصر ، ومؤمنا بأن الأمن الوطنى المصرى ، يستحيل فصله عن

الأمن العربى وهو إيمان انعكس بوضوح فى خواطره التى نشرت فى كتاب فلسفة الثورة ، والتى سنعود إليها فى فصل قادم .

وإذا كان عبد الناصر ، قائد تنظيم الضباط الأحرار قد تفرد عن سائر زملائه بعدم الانتماء والولاء لحزب واحد من أحزاب ماقبل الثورة ، فإن ذلك أعطاه القدرة على قيادة هذه المجموعة غير المتجانسة فكراً . وهنا تأتى احدى صفات عبد الناصر البارزة . وهى تركيزه على « الموحدات » وابتعاده عن « المفرقات » أى تغليبه لجانب الوحدة بين الأطراف المختلفة ، على جانب الخلاف . وهى صفة أسهمت بدور كبير فى تحقيق منجزاته . وكان الوضع « الجبهوى » لتنظيم الضباط الاحرار ، يحتاج الى هذه الخاصية ، الى قائد يجمع الفرقاء حول مبادىء أساسية لاخلاف بينهم عليها ، وتغليبها على أى خلاف عقائدى أو سياسى .

وذلك يدعونا الى تناول موقف جمال عبد الناصر من التيارات المختلفة ، بعد إنتصار الثورة ، وكيفية تناوله للقضايا المثارة الآن . مثل الأصالة والمعاصرة ، الموروث والوافد ، الهوية المصرية أو العربية أو الاسلامية ، وغيرها من القضايا .

● ● ●

الفكـــر الناصــرى
وقضـــية الأصـــالة والمعـــاصــرة

٥

كانت المحاولات السابقة ، إبراز أهم التيارات الفكرية السياسية والحزبية التى كانت تسود الساحة المصرية قبل ثورة ٢٣ يوليو . والأثر الكبير الذى أحدثته هذه التيارات . فى انتماءات الضباط الأحرار بقيادة جمال عبد الناصر .. وكيف استطاع عبد الناصر توحيد هذا الخليط المتنافر فى تنظيم أشبه بالجبهة . واقتناع الجميع بقيادة عبد الناصر ، بفضل ماتميز به من استقلالية عن جميع التيارات . رغم تأثره بها فى نفس الوقت .

لقد كان لحزب الوفد ، جانب مضيء ، يتمثل فى قدرته على صهر جميع المصريين ، بطوائفهم المختلفة ، فى بوتقة واحدة .. أفسدت مؤامرات المستعمرين ، فى تنفيذ سياسة « **فرق تسد** » . لكنه فى نفس الوقت . كان مليئا بالثغرات القاتلة الكامنة فيه ، والمتمثلة

فى عجزه الاستراتيجى عن رؤية العلاقة بين الأمن المصرى ، والأمن العربى .. وعجزه عن حل المشكلة الاجتماعية لجماهير العمال والفلاحين وغيرهما من الفئات الوطنية .

وكانت الروح الوطنية لحزب مصر الفتاة ، الذى أصبح بعد الحرب العالمية الثانية يحمل شعارات اشتراكية غامضة ، تشد إليها الوطنيين .. لكن انعدام الاتساق الفكرى لهذا الحزب ، وعجزه عن اتخاذ موقف واضح من قضية الجامعة الاسلامية ، والجامعة الوطنية المصرية ، وحركة القومية العربية . وهو التخبط الذى دفع قيادات هذا الحزب أثناء فترة الثلاثينيات ، إلى الدعوة إلى تنصيب الملك فاروق امبراطوراً على مصر والسودان . وخليفة للمسلمين .

وكان عبد الناصر يثق فى وطنية التيار الراديكالى للحزب الوطنى بقيادة فتحى رضوان .. وإن لم يجد فيه الوعاء المناسب لتوحيد « مصر » . كما كان يحلم عبد الناصر فى البداية ، من أجل التحرر ، والتقدم ، والعدالة الاجتماعية ، والنهضة الحضارية المستقلة .

وفيما يتعلق بالتيارات الاشتراكية اليسارية ، فإنها قدمت منهجاً جديداً . يحمل فى طياته بذور الحل الاشتراكى ، وإن كان عبد الناصر يرفض بطبيعته كل جمود عقائدى ، من شأنه إضعاف القدرة على الحركة والمناورة .. وصولاً إلى الأهداف المنشودة ، بما يتفق مع تكوينه العسكرى .

ثم يأتى الموقف من التيار السلفى الاسلامى .. المتمثل فى الاخوان المسلمين ، وهو الموقف الذى سأجعل منه المحور الرئيسى لهذا الفصل ، بسبب علاقة هذا الموقف بالجدل الدائر الآن حول الأصالة والمعاصرة ، ومحاولات البعض : اعداد مشروع للنهضة الحضارية المستقلة ، على أسس اسلامية . بعد انهيار المشروع القومى الناصرى كما يدعون !

والسؤال الذى أريد طرحه الآن ، هو : **هل كان الصراع بين التيار القومى الناصرى ، وبين الاخوان المسلمين ، تعبيراً عن موقف من الاسلام ، أم كان من حيث الجوهر صراعاً سياسياً ، جذوره تمتد إلى المواجهة الحضارية أثناء الحملة الفرنسية ، والمواجهة الوطنية منذ تكوين دولة محمد على عام ١٨٠٥ ؟**

هناك حقائق ثابتة ترد على هذا السؤال .

أولى هذه الحقائق : أن القيادة الناصرية لم تدخل فى أى وقت معركة حول أى عنصر من عناصر العقيدة الاسلامية ذاتها . وفى هذا تختلف عن قيارات ثورات كثيرة ، التى قامت بتحجيم شديد للمؤسسات الدينية ، مثل ثورة أتاتورك مثلا ، أو الثورات

الديمقراطية والاشتراكية فى أوروبا .

وثانى هذه الحقائق : أن اهتمام القيادة الناصرية بالمسائل الدينية ، **كان يفوق كل** ماكان موجوداً طوال فترة حكم الأحزاب المصرية ، الممتدة من ١٩١٩ إلى ١٩٥٢ . **ويكفى** دليلا على ذلك إنشاء المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .. وماكان يصدره من **كتب ومجلات** إسلامية دورية .. ونشاطه الواسع فى كافة المناطق التى تحتاج فيها الدعوة **الاسلامية إلى** رعاية وخاصة فى أفريقيا والشرق الأقصى .

وثالث هذه الحقائق : أن الاعلام الدينى اتسع اتساعاً هائلا **أثناء الحقبة** الناصرية ، بالقياس إلى ماكان موجوداً .. وازدادت كثافة المقررات **الدينية فى مراحل** التعليم المختلفة .

ورابع هذه الحقائق : أن الاهتمام بالدعوة الاسلامية . امتد إلى تطوير الأزهر .. لتضييق فجوة الازدواج الرهيب فى المؤسسات التعليمية والمتمثلة فى إقتصار **الأزهر والمعاهد** الدينية على علوم الدين واللغة من ناحية ، والجامعات والمدارس المدنية **على علوم العصر** من ناحية أخرى .

ولعل المذكرة الايضاحية لقانون تطوير الأزهر الذى صدر عام ١٩٦١ ، **تؤكد هذا** المعنى إذ تقول إحدى فقراتها : «**إن العالم الاسلامى انفسح مداه واتسع نطاقه ، ووضعته الظروف السياسية التى تمر به فى موضع الاختبار فى مجالات شتى .** وإن الثقافات الاستعمارية حاولت طوال مراحل سيطرتها ، تكوين أفكار أهله **وعقائدهم** ووضع موازين جديدة . مما دعا لتوسيع دوائر علومه بحيث تتساوى بقدر **مشترك مع** الجامعات الأخرى .. مع الحرص على الدراسات الدينية والعربية التى يمتاز بها **الأزهر** ، لتحقق لخريجى الأزهر الحديث وحدة فكرية ونفسية مع أبناء الوطن .. **ويتحقق بهم** للوطن والعالم الاسلامى ، نوع من الخريجين مؤهل للقيادة فى كل **المجالات الروحية** والعلمية » .

فإذا كانت القيادة الناصرية ، تولى هذا الاهتمام الكبير للإسلام من كافة الجوانب ، فلماذا حكمت الجماعات الاسلامية ذات الأهداف السياسية ، على المشروع القومى الناصرى بالكفر والانحراف عن الاسلام ؟ .

القضية إذن يصعب تفسيرها بسطحية هشة ترى أن الصدام بين التيارين . الناصرى ، والسلفى النصوصى ، تعود إلى افتقار المشروع الناصرى إلى قدر كاف من الاهتمام بالعنصر

الاسلامى . أو إلى موقف معاد للدين . بل أن جذور هذا الصدام تنبع من طموح الاخوان المسلمين بعد الثورة إلى فرض الوصاية عليها ، والقضاء على منهجها المتميز ، وإرغامها على إحتضان مفاهيم عن الدولة الاسلامية . تقود فى النهاية إلى تمزيق الوحدة الوطنية المصرية . والعودة إلى مفاهيم القرون الوسطى ، المرتكزة على وضع العقائد الدينية فى تصادم وصراع مع الحركات الوطنية والقومية .

كان عبد الناصر يعرف أن هناك زوايا مختلفة لفهم الاسلام . هناك التيار العقلانى الذى يحاول أن يجعل الاسلام قادراً على استيعاب حقائق العصر ، استيعاب العقلانية والديمقراطية والمحتوى الاشتراكى للعدالة الاجتماعية .. اسلام قادر على تجاوز الطائفية والاقليمية والتشرذم ، والعودة غير المنطقية إلى خلافات التاريخ ، لتعمل على تصعيد خلافاتنا وانقساماتنا . كان يفهم الاسلام على أنه يوحد ولايفرق ، يلهم المنطقة العربية بضرورة الثورة ومواصلة العطاء الحضارى القديم .

لكن أسس البلاء والخلاف ، تمثل فى الطرف الآخر ، الذى كان يصر على أنه المرجع الوحيد لتحديد الإستقامة أو الانحراف عن الاسلام .. و« القاضى » الأوحد الذى يحكم بتكفير من يشاء واعطاء صكوك الغفران لمن يشاء .

هذا التفسير المنحرف للإسلام ، هو مارفضه جمال عبد الناصر .. التفسير المستند إلى مفاهيم تعرقل إنطلاق العقل العربى إلى المعرفة والابداع . وتمارس أشد أنواع العنف ضد مخالفيهم فى الرأى .

ولقد عبر عبد الناصر عن هذه القضية بقوله : « **إن الأمة العربية تعتز بتراثها الاسلامى ، وتعتبره من أعظم مصادر طاقتها النضالية . وهى فى تطلعها إلى التقدم ، ترفض منطق هؤلاء الذين يريدون تصوير روح الاسلام على أنها قيد يشد إلى الماضى ، وهى ترى أن روح الاسلام حافز يدفع إلى اقتحام المستقبل .. على توافق وانسجام كاملين مع مطالب الحرية السياسية والحرية الاجتماعية والحرية الثقافية** » .

هذه الفقرة الهامة من خطاب عبد الناصر الذى ألقاه فى مارس عام ١٩٦٧ ، تبرز من ثناياها ثلاثة معالم تحدد مفهوم الأصالة والمعاصرة فى الفكر القومى الناصرى . فالأصالة تتمثل أولاً فى اعتزاز الأمة العربية بتراثها الاسلامى ، وثانيا : فى اعتبار هذا التراث طاقة نضالية هائلة ، وثالثا ، أن روح الاسلام تدفع إلى **اقتحام المستقبل على** توافق وانسجام مع مطالب الحرية السياسية والحرية الاجتماعية .

أى أنه ينظر إلى التراث الاسلامى **كطاقة نضالية** ، باتجاه مستقبلى وتقدمى ، ويرفض التفسيرات « الماضوية » له ، أى يرفض وضع الاسلام فى تناقض مع الحرية والتقدم .

هنا يكمن الفرق الجوهرى ، بين النظرة السلفية النصوصية ، التى تفهم الاسلام بطريقة جامدة ، تمجد الماضى ، وتهرب من الحاضر ، وتحلم بمستقبل يكون صورة من الماضى ، أى تحلم بالمستحيل ، وبين الرؤية الناصرية للتراث كطاقة نضالية ، وللروح الاسلامية كقوة تدفع إلى المستقبل ، تواكب أحدث ماوصل إليه العصر من تقدم علمى تكنولوجى ، فى توافق وانسجام مع الحرية بجناحيها السياسى والاجتماعى .

واذا كان الفكر الناصرى لم يطرح فى عصر عبد الناصر القضايا المثارة الآن للجدل ، ومن بينها الأصالة والمعاصرة ، فإن الوثائق الرئيسية لثورة يوليو ، وخطب جمال عبد الناصر فى المناسبات المختلفة تحمل فى طياتها مواقف واضحة وحاسمة من كل مايثار .

وإذا كان الخلاف حول جوهر روح الاسلام ، وهل هى قوة دافعة للتطلع نحو المستقبل ، أم هروب وانكفاء على تراث الأجداد ، يمثل العنصر الأول فى خلاف عبد الناصر مع الاتجاهات الدينية ، فإن الموقف من قضية الدولة ، يشكل العنصر الثانى .

لقد كان عبد الناصر يعى الخلافات العميقة فى الفكر السياسى القديم والحديث حول موقف الاسلام من طبيعة السلطة فى الدولة . ولاشك أن تجدد هذا الخلاف فى مرحلة العشرينيات بعد إلغاء نظام الخلافة فى تركيا ، يجسد خطورته . فالاتجاه السلفى النصوصى ، أخذ يتباكى على إلغاء هذا النظام . وينسى فى غمار حزنه أن الخليفة العثمانى ، كان ينظر إلى مصر وغيرها من الدول التى خضعت قرونا طويلة ، لهذا النظام ، باعتبارها مستعمرات ، يستنزف ثرواتها باسم الخضوع لخليفة المسلمين فى اسطنبول .

إن قضية سلطة الدولة تعتبر فى نظر « السنة » - مثلا - مدنية ، لأن الخليفة وأمير المؤمنين - رأس الدولة ، حاكم مدنى تختاره الأمة بالشورى، تبايعه ثم تراقبه ، وتحاسبه ، وتعزله إن هو ضعف ، أو فسق أو أخل بشروط التفويض .

لكن « الشيعة » تجعل رأس الدولة ، أى الامام ، صورة عليا لايملك البشر بشأنها تعيينا أو انتخابا أو عزلا . لأن الإمامة عند الشيعة من الشئون الالهية ، لادخل للبشر فيها .. وللأئمة قداسة ترتفع بهم عن مصاف البشر . وبالتالى تجريد الأمة من أى حق فى

الاختيار أو المراقبة أو الحساب .

ولعل مايفعله الامام الخمينى فى ايران الآن خير مثال .

وهناك مذاهب أخرى بشأن قضية الدولة فى الاسلام .. فهل يمكن أن يقبل وطننا العربى ، الحافل بالمشاكل والانقسامات ، أن تتعاظم همومه ، باضافة هذه القضية ، لتصل فى نهاية الأمر ، إلى دولة اسلامية بمفهوم « الشيعة » ، وأخرى بمفهوم « السنة » ، وغير ذلك الكثير .. بما يتوافق مع الانقسامات الدينية فى وطننا العربى ؟

يقول جمال عبد الناصر : « **ينظر الاسرائيليون إلى « اليهودية » لاكعقيدة فحسب ، بل كقومية ،وهذا مايعقد المشكلة . ولست أدرى ما الذى يحدث لو أننا قررنا أن نقيم دولتنا على الاسلام ، وقرر آخرون أن يقيموا دولتهم على المسيحية ، وقرر غيرهم أن يقيموا دولتهم على البوذية ! .. لسوف تكون هناك فى كل مكان مواقف وأعمال تنم على التعصب** » .

وفى اعتقادى أن هذه الفقرة من حديث جمال عبد الناصر إلى مدير تحرير لوس أنجلوس تايمز الأمريكية ، يجسد رؤيته العميقة ، لخطورة الصياح حول : **الدولة الاسلامية ، أو الدولة المارونية ، أو الدولة الشيعية ، أو الدولة المسيحية الأوروبية الموحدة من جديد** .

إنها نفس الرؤية الممتدة على منهج التركيز على « الموحدات » والابتعاد عن « المفرقات » .

وكل باحث جاد ، يعرف حجم المشكلة الطائفية ، ومشكلة الأقليات القومية والعرقية فى وطننا العربى . بل أن الرؤية العميقة لجمال عبد الناصر ، أثبتت صحتها فى مصر ، ولبنان ، والسودان ، وسوريا ، بعد موته بسنوات .

فانتشار تيار الدولة الاسلامية ، على أنقاض مفهوم الوحدة الوطنية المصرية ، والقومية العربية ، صاحبة التعصب .. واشتعال الفتن الطائفية فى مصر .

ومحنة التقسيم الطائفى فى لبنان ، ورغبة الطائفة المسيحية المارونية فى الهيمنة على السلطة هناك ، أشعل نيران الحرب الطائفية .

وإيمان الدولة الإسلامية الشيعية بقدسية الامام الخمينى ، يرفض وقف الحرب مع الدولة العربية الاسلامية .. بهدف إسقاط الحكم البعثى الاسلامى وإقامة حكومة اسلامية أخرى يرضى عنها الامام فى ايران .

ودولــة جعفر نميرى فى الســودان قبـل ثــورة أبريــل الأخيرة ، أشعلت نيران الحرب الأهليـة من جـديـد فى جنوب السودان ، عنـدمـا قررت اتخـاذ الاسلام هويـة لـدولتهـا ، والاسلام برىء من استبدادية وفساد وخيانة هذه الدولـة .. التى لم تتورع عن عقـد إتفـاق مع الولايات المتحدة ، واسرائيل ، لترحيل يهود الفلاشـا من أثيوبيـا إلى اسرائيل ، فى ظل « الامام النميرى » ودولته التى ادعى ظلماً أنها تطبق شريعة وتعاليم الاسلام .

ولم تكن السلطة الاستبدادية الدموية لضيـاء الحق فى بـاكستـان ، سوى المثل الواضح لخطـورة قضيـة إرتـداء ثـوب الاسـلام ، لضرب جـوهره النقى العظيم ، الـذى ترك للبشر حرية إقامة دولتهم بما يتفق مع ظروف عصرهم .

ولذلـك حرص المشروع الوطنى القومى النـاصرى ، على صيـاغـة مفهوم الـدولـة ، بمـا يتفق مع منهجه فى التأكيد على « الموحدات » والابتعاد عن « المفرقات » .. ورؤيـة مـاهو ثابت وجوهرى فى الأسس الدينيـة للعقيـدة الاسلاميـة ، ومـاهو متغير فى شئون الـدنيـا ، وعدم الخلط بينهما .

فـالثوابت الاسلاميـة تتمثل فيما كان مصـدره النص . أى الكتـاب والسنـة ، وهـذا هو الاسـلام الـدينى الـذى لايمكن الجـدل فيــه .. أمــا المتغيرات ، فتتمثـل فيما كان مصــدره الاجتهـاد ، ومن حق أبنـاء كل عصر الاجتهـاد بمـا يتفق مع مـايطرأ على الظروف والمكان والزمان من متغيرات .

وقضية الخلافة الاسلاميـة . فجرهـا فى العشرينيـات كتـاب « الاسلام وأصول الحكم ، للعالم الاسلامى الشيخ على عبد الرازق ، ثم العالم الاسلامى خـالـد محمد خـالـد فى كتـاب « من هنا نبدأ » بما صاحبها من جـدل طويل ، تشير بوضوح إلى الطـابع المـدنى ، العلمى للدولة ، وضرورة ابتعادها عن كل مايمكن أن يهدد الوحدة الوطنية ، أو الوحدة القومية .

ومن هنا ندرك الأسس التى استند إليها المنهج النـاصرى فى مواجهـة هـذه القضيـة .. وأثبت من خلال الممارسة ، وليس من خلال الجدل ، مدى صحـة مفهوم الـدولـة العصريـة التى لاتتعارض مع جوهر الاسلام .

● ● ●

مفهـــوم الدولــة العصــرية القــوميــة

٦

من بين القضايا المثيرة للجدل فى الساحة العربية اليوم ، قضية الدولـة العلمـانيـة ، أو الدينيـة ، كتوجـه رئيسى للـدولـة . وهى قضيـة متفرعـة عن الخلاف المحتـدم بين الاتجـاه السلفى بمختلف أشكاله ، الجامدة ، والمعتدلة ، والجديدة ، وبين أنصـار الرؤيـة المعـاصرة . بمختلف اتجاهاتهم أيضا ، الليبرالية التغريبية ، والقومية العربية ، والاشتراكية الماركسية .

فما هو المفهوم القومى الناصرى لهذه القضية ؟

إن النظرة المتفحصـة للوثـائق الرئيسيـة التى شكلت معـالم المشروع القومى لثـورة ٢٣ يوليو ، وهى فلسفـة الثورة ، والميثـاق الوطنى ، وبيـان ٣٠ مـارس ، بـالإضـافـة إلى جميع خطابات عبد الناصر وأحاديثه ، تكشف عن الموقف من هذه القضيـة. والمستند إلى جـذور

تاريخية عميقة ، وإلى مايجرى فى العالم المتقدم من ثورات علمية تكنولوجية .

يقول بيان ٣٠ مارس « **ان ينص الدستور على قيام الدولة العصرية واداراتها . لأن الدولة العصرية لم تعد مسألة فرد . ولم تعد بالتنظيم السياسى ، وحده ، وإنما أصبح للعلوم والتكنولوجيا دورها الحيوى . ولهذا يجب أن يكون واضحاً ، أن رئيس الجمهورية ، يباشر مسئوليته بواسطة الوزراء ، وبواسطة المجالس المتخصصة ، التى تضم خلاصة الكفاءة والتجربة الوطنية ، بما يحقق إدارة الحكومة عن طريق التخصص واللامركزية** » .

من هذا المفهوم الواضح ، يحدد المشروع القومى موقفه من إحدى القضايا التى تثير الانقسام بين أنصار الدولة الاسلامية الدينية ، والدولة العلمانية على النمط الأوروبى ، ومابينهما من اتجاهات .

وفى موقع آخر من نفس الوثيقة ـ بيان ٣٠ مارس ـ تقرأ هذه الفقرة « **تدعيم عملية بناء الدولة الحديثة فى مصر ، والدولة الحديثة لا تقوم بعد الديمقراطية ، إلا استناداً على العلم والتكنولوجيا** » .

والواقع أن مفهوم الدولة العصرية ، أو الدولة الحديثة ، نبتت بذوره منذ العام الأول لثورة يوليو فى كتاب فلسفة الثورة ، ثم نمت فى الميثاق الوطنى ، وظهرت صياغتها فى بيان ٣٠ مارس .

فى كتاب فلسفة الثورة ، تبرز معالم الرؤية المبكرة لجمال عبد الناصر ، حول خطورة التخلف ، وضرورة مواكبة التقدم العلمى ، ومسئولية الاستعمار العثمانى المستتر وراء الخلافة الاسلامية عن هذا التخلف . حيث يقول : « **كان المجتمع الأوروبى قد سار فى تطوره بنظام . واجتاز الجسر بين عصر النهضة من أعقاب القرون الوسطى إلى القرن التاسع عشر خطوة خطوة ، وتلاحقت فى حياته مراحل التطور واحدة إثر أخرى** » .

أما نحن ، فقد كان كل شىء مفاجأة لنا . كنا نعيش داخل ستار من الفولاذ ـ أى الاحتلال العثمانى ـ انهار فجأة . كنا قد انقطعنا عن العالم ، واعتزلنا أحواله » .

« كانت أرواحنا مازالت تعيش آثار القرن الثالث عشر ، وإن سرت فى نواحيها المختلفة مظاهر القرن التاسع عشر ، ثم العشرين » .

« كانت عقولنا تحاول أن تلحق بقافلة البشرية المتقدمة التى تخلفنا عنها خمسة قرون أو يزيد .. وكان الشوط ماضيا والسباق مروعاً مخيفاً .

ولكن من المسئول عن هذا التخلف ؟

يجيب عبد الناصر « كان أجدادنا يقولون : « يارب يامتجلى اهلك العثملى ».

ومن هذه الفقرات ، نصل إلى مدى وعى عبد الناصر بخطورة التخلف . وضرورة اللحاق بالمتقدمين فى العالم،على أسس علمية ، ووعيه بأن القرون الطويلة المريرة التى عانت خلالها الأمة من استبداد المماليك ، والخلافة العثمانية الاستعمارية ، هى المسئولة عن هذا التخلف .

وإذا كان كتاب فلسفة الثورة ، يحمل فى طياته بذور الوعى بهذه القضية ، فإن الميثاق الوطنى قد أمسك بهذه البذور ، وسار بها إلى مراحل متقدمه من النبو ، حيث يقول : « **إن الاستعمار العثمانى لم يأل جهداً فى استغلال اسم الدين للوقوف ضد مصالح الشعب ، وخيانته أثناء كفاحه ، ومن ذلك أن الخليفة العثمانى أصدر بيانا يحكم فيه على البطل أحمد عرابى بالخيانة والخروج على الاسلام ، وهو يقود جموع الشعب فى قتال ضد الاستعمار البريطانى . فقد اعتبر البيان عرابيا « عاصيا للسلطان والخليفة الأعظم ، ومخالفاً للشريعة الاسلامية الغراء ، ومضاداً لها بالكلية » .**

وكم أود أن يقرأ أنصار الدولة الدينية ، أو الخلافة الاسلامية ، والذين يتصايحون ويصرخون ضد الغرب ، والتغريبية ، ويحملون هذا الغرب مسئولية التخلف وحده ، دون التفات إلى حقائق التاريخ . ومن بينها هذه الواقعة الحاسمة .. عندما أصدر « خليفة المسلمين العثمانى » فرمانا بتكفير عرابى الثائر ضد الاستعمار « الغربى » . واعتباره مخالفاً للشريعة الاسلامية الغراء .ومضاداً لها بالكلية !!

ثم يقول الميثاق أيضا « **إن جوهر الرسالات الدينية لايتصادم مع حقائق الحياة ، وإنما ينتج التصادم فى بعض الظروف ، من محاولات الرجعية أن تستغل الدين ضد طبيعته وروحه ، لعرقلة التقدم ، وذلك بافتعال تفسيرات له تتصادم مع حكمته الالهية السامية » .**

والواقع أن تاريخ مصر بصفة خاصة ، يقف شاهداً على صحة هذه الرؤية . طوال عصر التخلف العثمانى ، كان الدين أحد أسلحة هذه الامبراطورية لاستعباد الشعوب العربية باسم الخلافة الاسلامية . بل والحكم بالكفر على أبطال النضال الوطنى ضد الاستعمار

« الغربى » من أمثال البطل أحمد عرابى .

وعندما تعاظمت مواجهة الشعب المصرى ضد الاستعمار والملك فؤاد فى أعقاب ثورة ١٩١٩ ، تحركت الرجعية الدينية لصرف أنظار الشعب المصرى ، عن معاركه ضد الاستعمار والاستبداد ، باختلاق ماعرف باسم « الخلافة الاسلامية » والتعاون الوثيق مع الملك فؤاد ، الذى كان يطمع فى أن يكون خليفة المسلمين . بعد ثورة أتاتورك والغاء الخلافة فى تركيا .

لكن الفكر الاسلامى المستنير ، لم يقف ساكنا أمام لعبه خلافة الملك فؤاد . بل تحرك العالم الاسلامى الكبير الشيخ على عبد الرازق ، ليصدر كتابه الشهير « الاسلام وأصول الحكم » يكشف فيه دعوة الخلافة ويهاجم استبداد الملك فؤاد ، وافساد سعيه لتولى الخلافة .

ويثبت الكتاب ، أن الخلافة ليست من صميم الدين ، والشريعة ، فالقرآن الكريم لاتجد فيه ذكراً لتلك الإمامة أو الخلافة ، والسنة لم تتعرض للخلافة ، ولا أمكن للعلماء أن يستدلوا منها فى هذا الباب ـ أى السنة ـ على أساس لهذا النظام .

ونفس التحرك تقريبا حدث فى نهاية الثلاثينيات .. على يد الملك فاروق هذه المرة ، الذى أطلق على نفسه : « الملك الصالح » ووقفت التيارات الدينية تساندة بقوة ، وتحيطه بهالة من القداسة .. إلى أن برز فريق جديد من علماء الاسلام ، المعبرين عن وجهه الحقيقى ، لكشف هذا الخداع الجديد .

إن هذا التاريخ الطويل لمأساة استغلال الاسلام ضد طبيعته وجوهره ، منذ الاستعمار العثمانى بصفة خاصة ، وبعده ، أسهم بدور كبير فى اتضاح مفهوم عبد الناصر حول **« قضية الدولة العصرية »** .

والمنطلقات الأساسية لمفهوم الدولة العصرية ، برزت فى الميثاق الوطنى على النحو التالى **« والثورة العربية ـ أداة النضال العربى وصورته المعاصرة ـ تحتاج إلى أن تسلح نفسها بقدرات ثلاث ، تستطيع بواسطتها أن تصمد لمعركة المصير التى تخوض غمارها اليوم ، وأن تنتزع النصر ، محققة أهدافها من جانب ، ومحطمة درع الأعداء الذين يعترضون طريقها من جانب آخر .**

وهذه القدرات هى : أولا : الوعى القائم على الاقتناع العلمى النابع من الفكر المستنير ، والناتج عن المناقشة الحرة ، التى تتمرد على سياط التعصب والإرهاب .

ثانيا : الحركة السريعة الطليقة التى تستجيب للظروف المتغيرة التى يجابهها النضال العربى ، على أن تلتزم هذه الحركة بأهداف النضال وبمثله الاخلاقية .

ثالثا : الوضوح فى رؤية الأهداف ، ومتابعتها باستمرار . وتجنب الانسياق الانفعالى إلى الدروب الفرعية ، التى تبتعد بالنضال الوطنى عن طريقه ، وتبدد جزءاً كبيراً من طاقته .

هكذا تبرز ملامح المشروع القومى تجاه قضية الثورة العربية ، ومنها تنبثق قضية الدولة : الوعى والفكر المستنير ، ورفض التعصب ، ووضوح الرؤية ، والحركة السريعة التى تستجيب للظروف المتغيرة وتجنب الانسياق الانفعالى الى الدروب الفرعية .

ويؤكد الميثاق على أهمية التفاعل الحضارى ـ وليس التعصب الحضارى ـ بقوله : **« وعى عميق بالتاريخ وأثره على الانسان المعاصر من ناحية ، ومن ناحية أخرى لقدرة هذا الانسان بدوره على التأثير فى التاريخ » . « وفكر مفتوح لكل التجارب الانسانية ، يأخذ منها ويعطيها ، لايصدها بالتعصب ، ولايصد نفسه عنها بالعقد » .**

ومرة أخرى يكشف عن الروح القومية العلمية الأصيلة فى المشروع القومى الناصرى .. **الفكر المفتوح على التجارب العالمية ، الرفض المطلق للتعصب والعقد المرضية .**

فأين هذا الفكر ، من موقف السلفيين القدامى . أو « التراثيين الجدد » الذين فقدوا الثقة بقدرة الروح القومية الوحدوية على النهوض من النكسة المؤقتة ، واندفعوا فى لعبة خطرة .. تتعاطف مع التعصب والتطرف ، بدعوى الحماية من مخاطر ابتلاع هويتنا

بل أين هذا الفكر ، من الموقف الجديد لفريق من « التراثيين الجدد » من أمثال الدكتور أنور عبد الملك ، الذى تراجع عن المفهوم العلمى للصراع الدولى ، والصراع الإقليمى والطبقى فى كل البلاد العربية ، ليصيغ نظريته عن نهضة الشرق ، بدون تمييز لشرق رأسمالى استعمارى ، وشرق يعانى من قيود التخلف والتبعية .

بل أن **هؤلاء** « المنظرين » ، دفعتهم الثورة الايرانية ، وتعاظم التيارات الاسلامية ، إلى التضحية بثقافتهم ، واستنارتهم ، والهرولة نحو معسكر الفكر المتعصب .. لضمان الرضا

والشعبية ، والاستفادة المالية من حكومات عربية غنية ، تنفق بسخاء على وسائل نشر هذا الفكر .

ونعود إلى قضية الدولة العصرية .

ماهى الأسس العامة لهذه الدولة ، ومن أين تكتسب ملامحها المتميزة عن الدولة الدينية كما يريد السلفيون ، والدولة العلمانية الليبرالية كما يريدها التغريبيون ؟ .

فى المشروع القومى الناصرى ـ تبرز معالم الدولة على النحو التالى :

أولا : « ان الديمقراطية السياسية لايمكن أن تنفصل عن الديمقراطية الاجتماعية . أن المواطن لاتكون له حرية التصويت فى الانتخابات ، إلا إذا كانت له ضمانات ثلاثة :

- أن يتحرر من الاستغلال فى جميع صوره .
- أن تكون له الفرصة المتكافئة فى نصيب عادل من الثروة الوطنية .
- أن يتخلص من كل قلق يبدد أمن المستقبل فى حياته » .

ثانيا : « أن ينص الدستور على تحقيق وتأكيد الانتماء المصرى إلى الأمة العربية ، تاريخياً ، ونضاليا ، ومصيرياً . وحدة عضوية فوق كل فرد وبعد أية مرحلة » (الميثاق الوطنى) .

ثالثا : « أن ينص الدستور على حماية المكتسبات الاشتراكية ، وتدعيمها ، بما فى ذلك النسبة المقررة فى الميثاق . للعمال والفلاحين فى كل المجالس الشعبية المنتخبة واشتراك العمال فى إدارة المشروعات وأرباحها (بيان ٣٠ مارس) .

من هذه الأسس ، نتبين الفروق بين مفهوم الدولة الدينية الاسلامية كما يريد السلفيون .. مهما استخدم الجدد منهم عبارات إنشائية مثل الاسلام الحضارى ، وبين مفهوم الدولة العلمانية من الطراز الغربى الرأسمالى ، أو الطراز الاشتراكى كما فى الاتحاد السوفيتى .

فالدولة العصرية تجعل من العلم سلاحها الرئيسى ، وترتكز فى نفس الوقت على الطاقات النضالية الحية فى الاسلام . إنها دولة ديمقراطية من نوع متميز عن ديمقراطية الغرب الرأسمالى . والشرق الاشتراكى .

فالدولة العلمانية الغربية ، لاتتمثل فى عزل الدين عن الدولة فحسب كما يقولون ، بل تتميز بخصائص طبقية تجعل من الرأسمالية الاحتكارية القوة المهيمنة عليها . والدولة الدينية تريد تجاهل كل ما أنجزه النضال الإنسانى والتقدم العلمى ، من أشكال ونظم ، لترتد إلى الماضى ، باحثة عن نظام تستخلصه من هذا الماضى .

بينما يقوم مفهوم الدولة العصرية ، على الاستناد إلى العلم كأداة رئيسية تحكم أجهزتها ومؤسساتها ، واعتبار التحالف الثلاثى بين الطبقات الشعبية والوطنية المحرك الأكبر لسياستها ، والهوية القومية العربية أساسها .

وهى أسس تتفق مع روح الاسلام وجوهره ، الذى ترك متغيرات الحياة خاضعة لنظم البشر ، وثوابت الدين والعقائد فوق كل جدل أو تغيير .

وذلك يدعونا إلى طرح قضية هامة ، وهى الفرق بين دولة محمد على ، ودولة جمال عبد الناصر .

● ● ●

المشـــروع القــومى الناصـرى
ومشـــروع محمــد عــلى

٧

هـل هنـاك تماثـل أو تشـابـه ، بين إنهيـار مشروع محمـد على عـام ١٨٤٠ ، ونكسـة المشروع القـومى النـاصرى بعـد هـزيمـة ١٩٦٧ ، ثم رحيـل جمـال عبـد الناصر عام ١٩٧٠ ؟

هذا السؤال ينبع من مفهوم ينتشر الآن فى كتابات وتحليلات الكثيرين من المفكرين العرب ومن بينهم أصحاب نظريـة « إنهيـار المشروع القومى النـاصرى » ومن يبحثون عن مشروع قومى بديل .

والأسس التى يستنـد إليهـا انصـار هـذا المفهـوم ، تنطلـق من أن دولـة محـمد على التى تـأسست عـام ١٨٠٥ فى مصر ، كانت بـدايـة عصر النهضـة .. وأن إنطلاقهـا نحو التحـديث

والتصنيع يشبه ماقام به عبد الناصر فى استقلال مصر عن الاستعمار البريطانى .. وحروب محمد على فى الوطن العربى . عبرت عن أول مشروع لتوحيد الوطن العربى فى العصور الحديثة .. لكن تحالف الدول الأوروبية ضد هذا « المشروع » أدى إلى انهياره .. مثلما تآمرت القوى الاستعمارية والصهيونية فى الستينيات على هزيمة مشروع عبد الناصر !

تلك هى أبرز الأسس التى يستند اليها أصحاب هذا المفهوم . وهى أسس تحاول إلتقاط بعض الملامح الشكلية ، وتتجاهل المضمون .. لكى تصل فى النهاية إلى حكم متعسف ، يحقق لبعض أنصار هذا المفهوم هدفهم ، وهو أن المشروعين استهدفا نفس الغاية ، ولقيا نفس المصير !

والرد على هذا المفهوم ، يأتى من الوقائع التاريخية التى يستحيل انكارها ويمكن تلخيصها فى الآتى :

أولا : حقيقة مشروع محمد على

إن المشروع السياسى الطموح لمحمد على ، لم يكن يستهدف إطلاقاً تحرير الأمة العربية ، وتوحيدها . وبناء نهضتها الحضارية المستقلة . والمتفاعلة مع جميع الحضارات الانسانية .. إنما إنطلقت أسس هذا المشروع من اتخاذ مصر قاعدة إنطلاق ، يقفز منها الوالى محمد على إلى عرش السلطنة العثمانية فى اسطنبول .

وكانت سياسته وحروبه ومحاولات ابنه ابراهيم استمالة العرب إليه ، ترمى فى النهاية إلى تحقيق هذا الهدف الطموح .

وتلك ظاهرة معروفة فى تاريخ جميع الامبراطوريات .

فالرجل - محمد على - لم يكن إلا جنديا من جنود السلطان العثمانى . ثم شعر باهتزاز وتداعى أركان الامبراطورية العثمانية التى جاء لخدمتها فى مصر .. فاتجه طموحه إلى وراثتها ، وترميم أطرافها ، واستعادة حيويتها الضائعة ، والوصول إلى عرش السلطان والخليفة فيها .

فلم يكن محمد على مصرى المولد ، أو عربى اللسان ، بل كان ألبانى المولد ، تركى الولاء والثقافة واللسان . ومن الطبيعى أن يكون طموحه مرتبطا بجذوره الأصلية .

ومن المعروف أن جماهير الشعب المصرى ، بزعامة عمر مكرم ، هى التى ثارت على الوالى التركى خورشيد . ومنحت ثقتها لضابط ألبانى فى الحامية العثمانية ، هو محمد على ، ليكون واليا على مصر ، بعد نجاح هذا الضابط فى استمالة الزعماء المصريين ، وكسب ثقتهم

ووعده بالقضاء على المظالم . واستشارتهم قبل الاقدام على فرض ضرائب .

وأمام ثورة المصريين ، أصدر السلطان العثماني « فرمانا » . يتضمن عزل خورشيد ، والاعتراف بمحمد على واليا على مصر .

لكن الوالى الجديد ، سرعان ما انقلب على الزعماء الذين اختاروه .. ونجح فى تفتيت وحدتهم . واستمالة معظمهم إليه بأساليب مختلفة ، ثم نفى زعيم الثورة عمر مكرم .

ماهى نظرة محمد على الحقيقية إلى الشعب المصرى ، الذى ثار واختاره واليا ؟

فى عام ١٨٠٧ ، حاول الاستعمار البريطانى السيطرة على مصر . وجاءت حملة انجليزية ، والمعروفة باسم « حملة فريزر » .. احتلت الاسكندرية أثناء إنشغال محمد على فى تشتيت فلول المماليك من حكام مصر السابقين .

لكن الشعب المصرى ، تصدى للاستعمار . ووصلت المقاومة ذروتها عند احتلال الحملة لمدينة رشيد .. مما أفسد أهداف الغزاة .

وعندما عاد محمد على من حروبه ضد المماليك فى صعيد مصر . **كانت المقاومة الشعبية قد ألحقت الهزيمة بجيش الحملة البريطانية . واستقبله زعماء الشعب ، وكلهم زهو بما تحقق . واقترحوا عليه استمرار المقاومة ، وأن يخرجوا جميعا ، الرعية ـ أى الشعب ـ والعسكر ـ أى جنود الوالى ـ لمواصلة المقاومة .**

لكنهم فوجئوا به يجيب « **ليس على رعية البلد ـ أى الشعب ـ خروج ، وإنما عليهم فقط المساعدة بالمال والعلائف .**

بهذه الكلمات يبرز الوجه الحقيقى للوالى العثمانى ، الألبانى الأصل .. والمتمثل فى عزل المصريين عن الجيش ، وعن واجب الدفاع عن بلدهم ، لكى تستمر المؤسسة العسكرية على تشكيلها من أخلاط الأجناس العثمانية .

لقد كان عثمانى الأهداف ، مملوكى الأساليب ..كل مايجب على المصريين عمله أثناء الحروب . هو المساعدة بالمال والعلائف للعسكر .

لكن الظروف أجبرت محمد على بعد ذلك على تجنيد المصريين فى الجيش . وألا يقتصر دورهم على «**تقديم العلائف للعسكر**» ، وهى ظروف تسجلها كتب التاريخ .. حيث فشل محمد على فى خطته لتحديث الجيش . فى ظل هؤلاء الجنود الأخلاط ، من الترك والأرنؤود والالبان . وغيرهم الذين يشيعون التمرد والاضطراب فى المدينة .

والتجديد أو التحديث ، يستلزم جيشاً نظامياً ، من نوع جديد .. وشراء مماليك جدد كان قد استحال تقريبا ، منذ بسط قياصرة الروس سيطرتهم على جورجيا وبلاد الجركس ، التى كان يستورد منها المماليك فى معظم الأحيان .

وحاول محمد على ، أول الأمر ، خلق هذا الجيش من السودانيين .. وأقام لهم معسكراً ، لتدريبهم على فنون القتال ، لكن الطقس وطرق التدريب الحديثة لم تلائمهم .
عندئذ فقط أرغم على المخاطرة .. أى تجنيد « الفلاحين » المصريين ، استجابة لضرورة فرضت نفسها عليه .

لكن هذه الضرورة ، أحدثت إنعطافة كبيرة فى تاريخ مصر . إذ لأول مرة ، منذ سقوط آخر ملوك الدولة الفرعونية المصرية القديمة ، يشترك المصريون فى تكوين المؤسسة العسكرية ، وإن اقتصر دورهم عند مستوى الجند والعسكر . دون الضباط والقيادات ، لخوف محمد على من مخاطر التمصير الكامل على سلطته .

لذلك كانت وظائف الضباط مقصورة على الأتراك والمماليك .. وإن كان التطور وفقا للمنطق الطبيعى ، حتم ظهور ضباط مصريين ، لم تزد رتبتهم فى عصر محمد على عن رتبة « اليوزباشى » .

تلك كانت الظروف التى فرضت على محمد على اشراك المصريين فى الجيش . والذين أثبتوابعد ذلك كفاءة قتالية وفنية باهرة .. الأمر الذى ارتفع بعدد الجيش عام ١٨٣٩ الى **٣٧٦ ألف جندى .**

لكن سياسة محمد على ، أو مشروعه الطموح ، دفعه إلى انتهاج سياسة ذات وجهين ، فهو من ناحية يسعى إلى اتخاذ مصر قاعدة للوثوب على عرش السلطنة العثمانية المريضة ، خطوة خطوة ، ومن ناحية ثانية ، يلتزم بتنفيذ مايطلبه السلطان العثمانى .

لذلك أرسل الجيش لقمع حركة الثورة الوهابية فى الجزيرة العربية ، استجابة لطلب السلطان العثمانى ، واستجاب لنفس الطلب لقمع الثورة فى اليونان .

ولانظن أن عاقلاً واحداً يستخلص من هذه الحروب ، أوجه شبه مع حروب جمال عبد الناصر ضد الصهيونية ، والمشاريع الاستعمارية الأوروبية الأمريكية .

والقول بأن حروب محمد على فى المنطقة العربية ، استهدفت تحريرها من السيطرة العثمانية ، تمهيداً لتكوين « الدولة العربية الكبرى » يتناقض مع الوقائع التاريخية الثابتة .

فبعد « تحرير » البلاد العربية ، لم يتوقف محمد على .. بل اندفع الى أرض الأناضول . وأصبح الطريق مفتوحاً أمام تحقيق طموحه الأكبر . وهو الأستانة .. أى السيطرة على قلب الامبراطورية العثمانية .

عندئذ بدأ التدخل الأوروبى .. بالتحالف مع بقايا الامبراطورية العثمانية المنهارة ، للقضاء على مشروع محمد على ، فى بعث الحياة بجسد الامبراطورية المتداعية . مستنداً إلى الطاقات الهائلة الكامنة فى قاعدته الرئيسية مصر .

وانتهى المشروع عام ١٨٤٠ . ليعود محمد على إلى مصر ، ويقبل من جديد الخضوع الشكلى للخلافة العثمانية ، بعد ضمان إنتقال حكم مصر إلى أبنائه من بعده .

هل يمكن لمشروع للوحدة العربية ، أن يتحقق عن طريق السيطرة العسكرية ، وقمع الثورات الداخلية ، واستغلال الحنين العربى للخلاص من الهيمنة العثمانية لتحقيق نفس أهداف الامبراطورية ؟

إن عرض الخطوط الرئيسية للمشروع الطموح لمحمد على ، لايعنى إنكار أثره الكبير فى الانتقال بمصر من عصور التخلف إلى مشارف عصر النهضة .

ولايمكن إنكار الاصلاحات الكبرى لمصر محمد على ، والمتمثلة فى بداية تمصير المؤسسة العسكرية . وإرسال البعثات العلمية للخارج ، والقضاء على المماليك ، وتنظيم الادارات والدواوين علىأسس حديثة ، والنهوض بمشاريع الرى والزراعة ، والتجارة ، والصناعة ، والكثير من الخطوات التحديثية الأخرى .

ذلك أمر يستحيل إنكاره . إنما القضية المطروحة للنقاش هى : هل كان مشروع محمد على ، يحمل نفس قسمات المشروع القومى لثورة يوليو .. وهل انهيار « مشروع محمد على » يتماثل مع نكسة المشروع القومى الناصرى ؟

ثانيا : الفروق الجوهرية بين المشروعين

إن السمة الرئيسية للمشروع القومى الناصرى ، لم تكن التطلع لوراثة امبراطورية مريضة أو « توحيد »الأقطارالعربية بالقوة ، إنما استهدف هذا المشروع ، تحرير الوطن العربى ، بشعوبه وثرواته من السيطرة الأجنبية ،

والاستبداد والاستغلال الداخلى ، وبناء نهضة حضارية شاملة ، والى توحيد الأمة العربية ، بالاعتماد على الارادة العربية لشعوبها .

هنا يبرز الخلاف الجوهرى الأول : « فالوالى » محمد على لم يدرك أن العالم العربى هو أمته التى ينتمى إليها تاريخياً وثقافياً ، ولم يدرك أنها عمقه الاستراتيجى الطبيعى ، وليس الأناضول والبلقان . ومن ثم ظل أداة اضطهاد عثمانية الطموح ، ضد الأقطار العربية التى قيل انه « حررها » بهدف توحيدها .

لكن جمال عبد الناصر ، **النابع من جذور مصرية عربية أصيلة ، كان تعبيراً عن طموح أمه ، ولم يجعل من هذه الأمةأداة لتحقيق طموحه .**

لم يكن عبد الناصر ، كفرد ، ومشروع يشبه من أى وجه محمد على .

إن جمال عبد الناصر ، بدأ من أعماق الشعب ، وظلت كلمة الشعب ، تتردد فى جميع مراحل تطور مشروعه القومى ، إلى آخر يوم من حياته .

ومنذ فلسفة الثورة - ١٩٥٣ - والميثاق الوطنى - ١٩٦٢ - وبيان ٣٠ مارس - ١٩٦٨ - ظلت هذه الكلمة هى المهيمنة داخل نسيج البناء الفكرى لهذه الوثائق الثلاث .

ومفهوم الوحدة العربية فى المشروع القومى الناصرى ، بدأ جنينا فى فلسفة الثورة ، حيث قال جمال عبد الناصر : « **وما من شك فى أن الدائرة العربية هى أهم هذه الدوائر .. وأوثقها إرتباطا بنا . فلقد امتزجت معنا بالتاريخ وعانينا معها نفس المحن ، وعشنا نفس الأزمات ، وحين وقعنا تحت سنابك خيل الغزاة ، كانوا معنا تحت نفس السنابك .**

ثم جاء الميثاق ، ليقول عبد الناصر فيه « إن الأمة العربية لم تعد فى حاجة إلى أن تثبت حقيقة الوحدة بين شعوبها .

وهنا يبرز عنصر جوهرى أصيل ، يفرق بين مشروع محمد على الطموح ، وبين المشروع القومى العربى .

فالوحدة القومية العربية ، لايمكن أن تكون فرضا ، بالقوة العسكرية حيث يقول عبد الناصر فى الميثاق « إن الوحدة العربية لايمكن ، ولاينبغى أن تكون فرضاً ، فإن الأهداف العظيمة للأمم يجب أن تتكافأ أساليبها شرفاً مع غاياتها . ومن ثم ، فإن القسر بأية وسيلة من الوسائل عمل مضاد للوحدة .

إنه ليس عملا غير أخلاق فحسب ، وإنما هو خطر على الوحدة الوطنية داخل كل

شعب من الشعوب العربية ، ومن ثم فهو خطر على وحدة الأمة العربية .

بهـذا الإدراك العميق لقضية الوحدة وأساليب تحقيقها ، تشتد المفارقة بين منطلقات محمد على ، وأساليبه ، وبين جمال عبد الناصر .

وقد يذهب خيال البعض ، إلى المقارنة بين الوحدة الألمانية ، والوحدة العربية بأسلوب محمد على . **حيث اعتمد « بسمارك » على العسكرية البروسية لتحقيق الوحدة الألمانية .** وهو خيال يصطدم ببديهية لاخلاف عليها . هى أن بسمارك لم يكن أجنبيا عن ألمانيا ، ولم يعش على أرضها بلغة وثقافة ومشاعر وأحلام بعيدة عن وطنه .

فهل كان محمد على ، رغم إصلاحاته العظيمة ، يشبه من أى وجه « بسمارك » فى ألمانيا ؟

●●●

ولست أريد الاسترسال أكثر من ذلك ، فى تبيان الفروق بين المشروع القومى الوحدوى الناصرى ، النابع والمعبر عن طموح الأمة العربية ، ومشروع محمد على النابع عن طموحه لوراثة السلطنة العثمانية المنهارة .

ومن الطبيعى أن ينهار مشروع محمد على ، لأنه يحلم بامبراطورية تقوم على **قهر قوميات أخرى .. ومن بينها القومية العربية . لقد كان مشروعاً ضد الواقع والتاريخ . بينما يستمد المشروع القومى الناصرى حياته المتجددة ، رغم النكسة المؤقتة ، من تعبيره عن طموح أمه ، ومعطيات واقع حى ، واتجاه يمتزج بحركة التاريخ وليس ضدها .**

وهنا نطرح سؤالاً : **أن يقف المشروع القومى الناصرى من الجدل الدائر حول الهوية ؟**

●●●

مضمون الهوية القومية في الفكر الناصرى

٨

من الأمور المثيرة للحيرة والدهشة ، أن الكثير من البحوث والمؤلفات والندوات والمؤتمرات التى انعقدت خلال السنوات الخمس الماضية لمناقشة قضية البحث عن مشروع قومى بديل للمشروع الناصرى ، الذى قيل إنه انهار ، أسفرت عن تصعيد للخلافات بين المتجادلين ، بدلاً من تجاوزها وصولاً إلى هدفهم .

فالجدل الذى اشتعل ولم يهدأ بعد ، حول التراث ، والهوية ، والأصالة ، والمعاصرة ، ومشروعات النهضة ، والغزو الثقافى ، والحل الإسلامى ، ونهضة الشرق ، وغيرها مما تفيض به الكتب والمجلات وأعمدة الصحف ، وأحيانا الاذاعة المسموعة

والمرئية ، لم يسفر حتى الآن إلا عن انقسام أصحاب التيـار الواحـد ، إلى عـدة فروع حول كل قضية من هذه القضايا .

فلم يتفق المتنـاظرون حـول مفهـوم التراث ، ولا الهـويـة ، ولا الأصـالـة ، ولا المعاصرة .

ولست ضد محاولات تأصيل أو تعميق الفكر العربى ، ولا ضـد الحوار الموضوعى بين تيـارات الفكر العربى . لكن الحـوار الـذى يفتقـد معجماً مشتركاً ومتفقـاً عليـه للمصطلحات المستخدمة ، مثل الثورة ، والنهضة ، والمشروعات الحضارية ، وغيرها ، لا يمكن أن يقـدم إسهـامـاً جـاداً للفكر القـومى المعـاصر . كما أن الاستغراق فى بحث قضايا نظرية مجردة ، بدون اتفاق على مدلولات معظم الكلمات المستخدمـة فى هذا النقاش ، وبمعزل عن مشـاكل الواقع العربى . وهموم الجمـاهير الشعبيـة التى يقـال إنها صانعة الثورة ، والتاريخ ، إلخ .. يصعب أن يحقق مـا هو مطلوب أو منشود فى هذه المرحلة الصعبة من التاريخ القومى .

هنا تبرز خاصية هامة للفكر الناصرى ، تتمثل فى إنزال الجـدل الـذى يـدور فى سماء التجريـد ، والتراشق بـالألفـاظ ، إلى حيث يـوجـد الـواقـع الحى ، كما هـو بـلا تركيبات لغوية زاهيـة الألوان والبريق ، ومفردات خلابـة المظهر والرنين ، لا تسفر إلا عن مزيد من البلبلة ، والضياع . وسط التهويمات ، والتمويهات اللفظية .

ومنهج جمال عبد الناصر يتميز بطرح المشكلة ، وتفسيرها ، ثم تحديـد دلالتهـا . بمـا يتفق مـع أسلـوب التركيز على « المـوحـدات » والابتعـاد عن « المفرقـات » ويتميز أيضاً بربط كل مشكلة بالواقع الحى للأمة العربية ، ومـدى ملاءمة كل موقف ليكون فى خدمة حركة الصراع الدائرة بين قوى الأمة العربية وأعدائها .

إن السؤال الذى برز منـذ الصـدمـة الحضـاريـة التى نتجت عن الحملـة الفرنسيـة حول الموروث والوافـد ، أو التراث ومواكبـة منجزات التقـدم العلمى ، هـذا السـؤال بأشكالـه المختلفـة ، لم يطرحـه عبـد النـاصر بـالكيفيـة التى تطور إليهـا اليوم . لأن السؤال : ماذا نأخذ من التراث . ومـاذا نـأخـذ من الوافـد . يفيـد معنى « التخيير » والحيـاد ، **ونكون بـذلـك قـد سوينـا بينهما ، كما لو كنـابعيـدين وخـارجين عنهما معـاً . بمعـزل عن حقيقـة بـديهيـة ، وهى أننـا نتحـدث بـاللغـة العربية . ونعيش على أرض عربية ، ونمـارس طقوس الزواج ، وطريقـة إستقبال المولود ، وطقوس الموت ، وغيرها وفقاً لهذا التراث .**

فـالتراث هـو آل إلى مجتمـع راهز عن الأجيـال السابقـة ، من قيم ونظم وأفكار ، وعادات ، وتقاليد ، وأخلاق ، وآداب .

ومثـل هـذا التراث ينسـاب فى كيـانـنـا ، ويمتزج بـه إمتزاج الـزيت بالزيتونة كما يقال .

ولم يكن الفكر الناصرى يدور فى فراغ . بل بدأ مسيرته وتطور من أعماق هـذا التراث .. بدون إغماض عينيه عن تحديات الحضارة الحديثة ، وضرورة الاستفادة من منجزاتها . فهو يتعامل ويتفـاعل معهـا .. لا يهرب منهـا إلى « الموروث » ولا يـذوب فيها فى نفس الوقت .

والأمـة العربيـة فى مفهـوم الفكر النـاصرى ، هى التى تملـك وحـدة اللغـة ، والتاريخ ، والتراث ، ووحدة الأمل . أى أن هذا الفكر . فى وثائقه الرسميـة ، لا فى بعض الشروح والتفاسير البعيدة عن جوهره ، ينطلق من هذه المرتكزات .

فالهويـة القوميـة، تبرز من خلال تميزهـا عن القوميـات الاخرى . ومن الطبيعى أن يـدخل الإسـلام كعنصر من عنـاصر تراث الأمـة العربيـة .. لكن الدين لا يشكل بمفرده هوية لأية قومية ، إذ لو صح ذلـك ، لأصبح العـالم مقسماً إلى عـدد محـدود من الهـويـات القـوميـة .. ثـلاث هـويـات للـديـانـات السماويـة المعروفـة ، وعـدد من العقـائـد غير السماويـة .. ولأصبحت هـويـة الفرنسى ، والألمـانى واحـدة ، حيث يربطها دين واحـد ، هـو المسيحيـة ، ولا أصبـح الأنـدونيسى والبـاكستـانى والمسلم الأمريكى ، أو الفرنسى ، ينتمون إلى أمة واحدة . أى هوية واحدة .

يقول جمال عبد الناصر فى الميثاق : « **إن الأمة العربيـة لم تعـد فى حـاجـة إلى أن تثبت حقيقة الوحدة بين شعوبها . يكفى أن الأمة العربيـة تملـك وحدة اللغة التى تصنع وحدة الفكر والعقل .**

ويكفى أن الأمـة العربيـة ، تملـك وحـدة الأمـل التى تصنـع وحـدة المستقبل والمصير »

من هذه الكلمـات البسيطـة الواضحـة ، ينبع مفهوم عبـد النـاصر . عن الهويـة العربية . إنه مفهوم يرتكز على الرمز ، أو العامل المشترك الـذى يجتمع عليـه كل أفراد الأمة ، مهما اختلفت العقائد الدينية أو العرقية ، إنه مفهوم يوحـد ولا يفرق . يسد

الثغرات التى يمكن أن ينفذ منها الأعداء . ويحول دون تكرار المآسى التاريخية والمعاصرة ، المرتبطة بالروح الطائفية والعصبية . ويكفى مثل لبنان ، وإيران وعاصفة التعصب الطائفى التى تجتاح جنوب السودان الآن .

إن عبد الناصر لم يستغرقه البحث النظرى الاكاديمى ، لم يجهد نفسه كثيراً فى البحث عن الأصول الحضارية لكل بلد عربى .. ولم تشغله قضايا الأنثربولوجيا وشكل عظام الجماجم ، ليصل عن طريقها إلى قناعة عما إذا كانت العروبة حقيقة لها جذور مشتركة لشعوب هذه المنطقة ، أم إنها إسطورة . **فهو يعرف يقيناً أن اللسان الذى ينطق به ، والعقل الذى يفكر به ، والثقافة التى تشكل وجدانه ، هى نفسها التى تشكل معالم ، أو هوية كل عربى من المحيط إلى الخليج .**

منطق بسيط عملى .. لا يحتاج إلى جدل .. بل يشكل منطلقاً واضحاً للعمل . لم يكن عبد الناصر منظراً عقائدياً ، يصول ويجول فى ندوات الفكر وجدل الصالونات . بل كان قائداً فكرياً وسياسياً ، يبدأ من الواقع والممارسة ليصل إلى الفكرة الدافعة لتطوير هذا الواقع . **كان مشغولاً جداً بالتغيير ، أكثر من إنشغاله بالتفسير أو التنظير .**

لذلك لم يكن إقتراب المشروع القومى لثورة ٢٣ يوليو ، من فكرة القومية ، تمليه دوافع أيديولوجية ، بحيث يستغرقه البحث عن مشاكل الهوية ، ومدى إسهام العناصر المختلفة من تراثنا الدينى والثقافى فى تشكيلها بل كان اقتراباً ، ثم احتضاناً ، يستند إلى وحدة اللغة التى تصنع وحدة الفكر والعقل ، ووحدة الأمل التى تصنع وحدة المصير والمستقبل .

ولا شك أن قراءات جمال عبد الناصر المركزة حول الجغرافية السياسية للوطن العربى ، وأوضاعه الأمنية وتاريخه ، وتفاعل مصر مع هذا التاريخ مصيرياً ، تؤكد وحدة الوطن العربى ، من المحيط إلى الخليج ، فهو منطقة جيوبوليتكية - كما يقولون - واحدة .. من حيث الأمن والمصير .. ودون السقوط فى منزلق التفسير الجغرافى للتاريخ كما يفعل الدكتور أنور عبد الملك .

فالإعتبارات الجغرافية السياسية ، والاستراتيجية العسكرية ، التى أتقن عبد الناصر علومها دراسة وتدريساً فى الكلية الحربية وكلية أركان الحرب . كانت أحد

المداخل الهامة للربط بين أمن مصر وأمن المنطقة العربية .

ولا يختلف اثنان ، على أن حرب فلسطين التى شارك فيها عبد الناصر ، عمقت من أهمية هذه الاعتبارات .

يضاف إلى ذلك ، دراسة عبد الناصر لأعمال عمالقة الفكر الاستراتيجى العسكرى من أمثال كلاوزفيتس، ولندسال، واهتمامه بسير حياة الشخصيات التى أسهمت فى معارك الوحدة القومية لأمتها ، مثل غاريبالدى أو القادة العسكريين العظام مثل نابليون .

ومثل هذا النوع من الثقافة ، لابد أن يترك بصماته على التكوين الفكرى ، وعلى نهج التعامل مع الواقع ، والحرص على معرفة هذا الواقع . من أجل امتلاك القدرة على تغييره إلى الأفضل .

ومعرفة واقع الأمة العربية ، وتاريخها ، يشير بوضوح إلى تبلور شخصيتها القومية ، على أسس لغوية وثقافية وحضارية وتاريخية، بداخلها انصهرت حضارات متنوعة ، واختفت النعرات الطائفية أثناء فترات المد الوطنى والقومى ، بفضل الوعى القومى للمسلمين والمسيحيين على السواء ، بأهمية المواجهة الموحدة ضد العدو الواحد ، وهو الاستعمار والصهيونية .

لذلك تظل الهوية ، على مستوى الضمير القومى الجماعى ، قوة مؤثرة فاعلة ، حتى وإن أخفقت المؤسسات الرسمية فى تجسيدها ، أو حاولت تعديلها . أو تشويهها ، أو تلوينها . فالمقياس دائماً هو الجماهير ، وليس الشعارات الملتهبة .. والجماهير التى التفت حول عبد الناصر ، كرمز ومفهوم وقضية ، ترد بحسم على من يتوهمون فى الشعارت الدينية ، سبيلاً لتحريك الجماهير . ففى حياة عبد الناصر ، وخلال الساعات العصيبة بعد هزيمة حزب يونيو ـ عندما قرر التنحى عن مسئولية القيادة ـ وخلال جنازته التى لم يشهد لها التاريخ مثيلا . هذه الرموز الكبرى ، تستلزم الوقوف عندها ، وتأمل دلالتها للتأكد من أن هذه الجماهير لم تكن مدفوعة بولاءات (دينية) ، أو عواطف طائفية ، بل شعور قومى عميق ، وإحساس لايخطىء بما يمثله عبد الناصر من رموز .

إن مأساة الذين يريدون جعل الدين أساس الهوية القومية ، وليس أحد عناصرها الهامة ، هى أنهم يتجاهلون مذابح الحرب الطائفية فى لبنان ، ويرفضون الدروس المستخلصة من تاريخ أمتنا .. وأهم هذه الدروس أن فترات المد القومى

والثورى لجميع شعوب العالم تتميز بتراجع الاتجاهات الطائفية .. وبروز الوجه القومى الواحد للأمة .

وفى فترات الأزمات . والجذر القومى والثورى . تبرز هذه الاتجاهات ، كتعبير عن الرغبة فى الهروب من واقع مهزوم ، حتى ولو كانت هزيمة مؤقتة . والاختفاء داخل متاحف التراث القديم ، واجترار اجتهادات لعصر غير عصرنا . ظهرت لتواجه مشاكل لاتمت بصلة إلى مشاكلنا .

وبذلك ، ينكرون الحق المقدس ، لأبناء كل عصر ، فى الاجتهاد مثلما فعل أسلافهم ، لمواجهة قضايا عصرهم ، وبما لايتعارض مع جوهر الإسلام .

ومن الصعب الفصل بين المفهوم القومى الناصرى للهوية العربية عن إدراكه للحقائق التى تحيط بأمتنا والتآمر الاستعمارى ضد وحدتها .

ومن هنا ارتبط المفهوم ، بالطابع المميز لدعوته إلى الوحدة العربية . وتتلخص فى الآتى :

● إنها دعوة للاتحاد ضد العدو المشترك .. وهو الاستعمار والصهيونية .

● ودعوة ضد قيود التخلف التى يفرضها عليها الاستعمار .. وضد الحصار الخفى لطموح أمتنا من جانب الاستعمار .

● وهى دعوة إلى الاستقلال الحقيقى .. أى الاستقلال الاقتصادى والسياسى ، والعسكرى ، كبداية ضرورية لبناء النهضة العربية المستقلة ، والمتفاعلة فى نفس الوقت مع حضارات العالم ، بلا عقد ، أو خوف ، أو تعصب .

هكذا يبرز أمامنا الفارق الجوهرى ، بين المفاهيم القومية التى انبثقت من خلال الممارسة الحية ضد أعداء الأمة ، وبين المفاهيم التى تحاول العودة إلى ما قبل القرون الوسطى .. عندما كان الولاء للفرد الأوروبى . ينحصر فى ديانته فقط ، بعيداً عن أى ولاء قومى .

● ● ●

المشــروع القــومى
بين الابــداع والاتبـــاع

٩

هناك حقائق بديهية تغيب عن أذهان المتجادلين حول الأصالة والمعـاصرة . من بينها أن معايشة العصر ، ليست مسألة اختيار .. وكأنها يمكن قبولها أو رفضهـا . بل هو مسألـة إجبـار . ، البـديل الوحيـد أمـامهـا ، هو الانزواء أو الهروب فى كهف مظلم ، لا تصلـه كهربـاء « العصر » ولاوسـائل مواصـلات واتصـالات « العصر » ولا مطبوعات تخرج من مطابع « العصر » .

لا أجد فى هذا العالم ، من يملـك أن يكون معـاصراً أو لايكون . تلـك حقيقـة بديهية لا تقبل الجدل . وبالتالى فإن طريقة وضع المشكلـة ، أى الأصـالـة فى مقـابل المعاصرة ، تحمل فى ثناياها خللاً يتصل بعلاقتنا بالزمن والتاريخ .

لكن ذلك الخلل . ينصب فقط على الشكل الذى يطرح به السؤال ، ولا يمتد إلى ما يحمله هذا الشكل من قضية حقيقية ، نستطيع أن نضعها فى الشكل التالى : وهى الاتباع ، أم الإبداع . وتلك صيغة تتخلص من التناقض الكامن فى الصيغة الأولى ، والمتمثل فى أن من الممكن الاختيار بين أن يكون الإنسان معاصراً ، أو لايكون .. ذلك أن كل كبيرة وصغيرة فى حياتنا تحمل طابع العصر ، أو المعاصرة .. إبتداء من القلم الذى نستخدمه لكتابة « اللعنات » على العصر ، والورق الذى يحمل هذه « اللعنات » والمقعد الذى نجلس عليه أثناء الكتابة ، إلى المطبعة التى تتولى طبع هذه « اللعنات » .

القضية إذن هى : الاتباع أم الإبداع .. التبعية أم الاستقلالية . تلك هى الصيغة المناسبة ، وحولها يجب أن يدور النقاش ، **هل نظل مقلدين ، نعيش بأفكار غيرنا ، أم نصبح مبدعين نبتكر حلولنا الخاصة .**

لكن هذه القضية لا تنطبق فقط على المقلدين لأنماط حضارية غريبة بل تمتد أيضاً على من يطالبون بالانسحاب إلى الماضى ، لنستعير طرق تفكير الأجداد ، ونستظل بما أبدعوه من إجتهادات لعصرهم .

إن متابعة أحدث الرقصات والأغانى الغربية ، والحرص على متابعة أحدث خطوط « الموضة » مظاهر تعبر عن التقليد والتبعية . لكن من يرفضون هذا التقليد . ويتراجعون إلى الوراء . لتقليد ملابس أجدادهم منذ قرون ويستعيرون طرائقهم فى التفكير . هو أيضاً مظهر من مظاهر التقليد والتبعية . وابتعاد عن جوهر الاستقلالية والإبداع .

إن السؤال : إبداع أم إتباع . يحمل المضمون الحقيقى للقضية التى يدور حولها الجدل .

وإذا كانت المعاصرة ، تعنى قبل كل شىء ، تفتحاً على علوم وتكنولوجيا ومعارف وفنون العصر ، فإن من التجنى على هذا المفهوم ، أن نصنف من يتقن رقصة « السوينج » و « بوب ميوزك » . ويحتقر تراث أمته . بأنه « عصرى » فهى بالتأكيد مجرد ببغاء مقلد .

ونفس الأمر ينطبق على مفهوم الأصالة .

الإنسان لا يستطيع أن يفلت من « أصله » المتمثل فى تراثه الدينى

والحضارى،لكن الوقوف عند إجتهاد الأسلاف ، وترديد نصوصهم ، وتقليد ملابسهم . ولحاهم ، لا يمت بصلة إلى مفهوم الأصالة.هنا أيضاً يكون التقليد الأجوف المجرد من أى إضافة أو إبداع .

وعندما ندرس بعمق الأسس التى تشكل منها المشروع القومى الوحدوى . نكتشف طابع التمايز والإبداع فى هذا المشروع . وتجنب التقليد والتبعية أو الإتباع .

وأصالة المشروع القومى الناصرى ، تكمن فى رفضه المزدوج للنماذج الجاهزة من نظم البلاد التى تمتلك أحدث منجزات علوم العصر ، وللنماذج التى توصل إليها أسلافنا لتتفق مع ظروف عصرهم .

لقد استند المشروع القومى ، **إلى القيم الإيجابية فى تراثنا . دون تجاهل للعناصر الإنسانية المتضمنة فى الحضارة العلمية الراهنة .**

وأستخلص بعد ذلك . رؤيته المتميزة للعدالة الاجتماعية فى مواجهة الاستغلال الطبقى ، والتنمية المستقلة فى مواجهة التبعية للخارج ، والديمقراطية وتحالف قوى الشعب العامل فى مواجهة القهر والاستبداد ، والوحدة العربية فى مواجهة الاقليمية والتجزئة ، والتعبئة القومية الشاملة ضد الامبريالية والصهيونية .

تلك هى أبرز معالم الخط القومى الوحدوى ، لا ينقصه فى ظروفنا الراهنة ، سوى الشكل المناسب للديمقراطية ، الكفيل بإطلاق طاقات الخلق والنضال والإبداع لأوسع القطاعات الجماهيرية .

وعندما نأخذ مفهوم السلطة والدولة والديمقراطية فى هذا البناء الفكرى ، نكتشف مدى التمايز والإبداع .. رغم الأخطاء والتجاوزات التى شابت الممارسة ، وتلك قضية سنعود إليها فى فصل مستقل .

ولكن ما يعنينا الآن ، هو الإجتهاد الإبداعى الذى تميز به المشروع القومى ، وكيف تجنب مأساة الجمود والانكماش عند « السلفيين » والانغماس والانبهار عند «التغريبيين » ، والوقوف على أرضية راسخة ، قوامها الاستجابة الفاعلة للحضارة المعاصرة ، دون فقدان للإتجاه الاستقلالى .

لقد رفض الفكر الناصرى الخضوع للقوالب الجاهزة .. أى الإتباعية بوجهيها الغربى والسلفى النصوصى .

فالإتباعية ، أو لنقل التبعية ، لا تعنى فقط الخضوع لدولة كبرى ، وتقليد أنماطها الحضارية بل تعنى أيضاً التبعية لفكر الأجداد ، دون بحث أو تمحيص .. ودون تجديد أو إبداع .

فالفكر القومى يستحيل عزله عن ظروف عصره . وعندما « يسجن » هذا الفكر فى قوالب صاغها الأجداد ، استهدفت فى زمنها مواجهة مشاكل تختلف عن مشاكلنا ، تستحيل عليه الاستجابة الفعالة لظروف العصر .

وقضية الدولة العصرية الديمقراطية ، تعتبر أحد الأركان الأساسية فى المشروع القومى .. بل يمكن القول بأنها العمود الفقرى للأركان الأخرى لهذا المشروع . من تنمية اقتصادية مستقلة . وتطور حضارى ، وتقدم اجتماعى ، ووحدة قومية ، والتصدى للمشروع الصهيونى الاستعمارى .

أى أن قضية الديمقراطية لا تنفصل عن الصراع ضد العدو الإسرائيلى . وضد السيطرة الأجنبية ، والسيطرة الاستغلالية الداخلية .

ومن المؤكد أن القوى صاحبة المصلحة العليا فى التنمية الاقتصادية المستقلة والتطور والتجدد الحضارى ، هى الجماهير بكافة قطاعاتها .

لذلك فإن الصياغة القومية لقضية الديمقراطية ، والتى تضمنها ميثاق العمل الوطنى ، تحمل المعالم التالية :

● تحالف قوى الشعب العامل هو القوة صاحبة السلطة والسيادة .

● الديمقراطية السياسية والديمقراطية الاجتماعية . جناحان متكاملان للحرية .

● الانتقال التدريجى للسلطة من مستوى التمركز ، إلى المستويات الأدنى ، أى المستويات المحلية .

● فى كل مستوى من مستويات الممارسة ، يجب أن تكون الكلمة الحاسمة للمجلس الشعبى المنتخب فى مواجهة الإدارة المعينة من الحكومة .

● فى كل المجالس السياسية المنتخبة ، يجب أن يكون للفلاحين والعمال نصف المقاعد على الأقل .

● مشاركة العمال فى مجالس إدارة المصانع والمؤسسات والهيئات .

بهذا الإطار العام لقضية الديمقراطية ، المرتبطة عضوياً بقضية الدولة

والسلطة ، يبرز الجانب المميز والإبداعى .. وهو إطار غير مسبوق ، يختلف إختلافاً جوهرياً عن جميع الإطارات القديمة والمعاصرة ، وهو صورة جيدة فعالة قادرة على تحقيق طموح الجماهير .

وينبغى ملاحظة نقطة هامة . وهى أن هذا الإطار ، أو المفهوم لم ينبع من خطط نظرية مجردة .. بل جاء من خبرة أثبتتها الممارسة الواقعية ، والمواجهة الإيجابية للتحديات ، ومن الدروس المستفادة من « الإطار الديمقراطى » للنظام فى مصر قبل الثورة .

ففى مصر قبل الثورة . كان هناك دستور « ديمقراطى » ، هو صورة تكاد تكون متماثلة مع الدساتير فى النظم الرأسمالية الغربية المتقدمة . باستثناء عنصر جوهرى هام . وهو أن هذا الدستور لم يشل سلطة الإحتلال البريطانى عن التدخل .. ولم يتح لجماهير الفلاحين والعمال الحق « الديمقراطى » فى الاعتراض على سلطة القصر الإقطاعى فى المركز أو القرية ، وخضوع مأمور المركز ، أو ضابط القرية ، أو العمدة لهذه السلطة .

كما لم يستطع هذا الدستور ، تحرير إرادة الناخبين من سيطرة العائلات الكبرى ، التى تملك السلطة والإحسان والعقاب للفلاحين الذين يذهبون الى صناديق الاقتراع .. كما لايستطيع العمال التمتع بالحق الحر فى الانتخاب ، إذا كان المرشحون يحظون بمساندة كبار الرأسماليين الذين يملكون حق الفصل والتشريد وسجن « المشاغبين » .

وجذور المفهوم القومى الناصرى للديمقراطية وعلاقاتها بالسلطة ، بدأت منذ تكوين اللجنة التحضيرية لوضع الدستور .. فبعد أن انتهت من عملها رفض عبد الناصر دستورها ، وأشرف بنفسه على وضع دستور ١٩٥٦ والفرق بين الاثنين يكشف عن معالم رؤية عبد الناصر المبكرة للديمقراطية وعلاقتها بقضية السلطة . المشروع الأول . كان ليبرالياً غربياً . خالصاً . لا يحمل فى نصوصه روح الثورة . ولا يعبر عن طموح جماهيرها . ولا يخدم الرغبة فى التمايز الديمقراطى . بما يتفق مع الظروف الموضوعية .

فى ذلك الحين . قال عبد الناصر « **إن النظام النيابى يقصر دور الشعب على مهمة انتخاب نوابه فى فترات معينة من الزمن . دون أن يفسح مجالاً ليمارس الشعب سلطاته بنفسه أثناء هذه الفترات** » .

وكانت الخطوة الأولى فى اتجاه ممارسة الشعب لبعض سلطاته ، هى النص لأول مرة فى دستور ١٩٥٦ ، على نظام الاستفتاء ، وإن هذا النظام شوهه السادات بعد ذلك ، عن طريق الاستفتاءات المزورة للحصول على موافقة الشعب على القوانين المعادية للحرية ، وعلى الصلح مع إسرائيل .

وكان من الطبيعى أن يتطور مفهوم عبد الناصر حول ممارسة الشعب لسلطاته بصورة مستمرة وليس أثناء فترة الانتخابات العامة فقط . ومن هنا جاءت النصوص الجديدة فى الميثاق . حول المجالس المحلية المنتخبة ، والارتقاء بسلطة هذه المؤسسات الجديدة . لتكون الرقيب والمحاسب للسلطات الإدارية فى جميع المحافظات .

والرؤية الناصرية للجناح الثانى للديمقراطية ، أى الديمقراطية الاجتماعية . تتميز أيضاً بأصالة وإبداع .

فهى رؤية ترفض مفهوم الدولة العلمانية الرأسمالية فى الغرب ، القائم على الحرية الكاملة للملكية الاستغلالية الخاصة ، وترك قوانين السوق الرأسمالى تطحن من تشاء ، وترفع من تشاء .

كما رفضت هذه الرؤية قبول مفهوم الدولة فى النظم الاشتراكية الماركسية القائم على دكتاتورية البروليتاريا وتحقيق العدالة الاشتراكية من خلال هذه السلطة .

ورفض أيضاً الشعارات الهلامية غير المحددة ، عن الدولة الإسلامية ، وعدالتها ، فالإسلام دين سماوى ، وجزء رئيسى من تراث الأمة . لكن عبد الناصر لم يتعامل مع الإسلام كنصوص ، وإنما كروح عامة ، ملهمة موحدة « للعرب والمسلمين » وحافزة على إقتحام المستقبل .

فالمشروع القومى فيما يتعلق بقضية الديمقراطية الاجتماعية . يبدأ من أنه مشروع مستقبلى .. تلتحم فيه الكفاية مع العدل .. فى وحدة لا تنفصل عن النهضة الحضارية المستقلة ، والوحدة العربية الطوعية ، المستندة إلى الديمقراطية والاختيار والاستفتاء الحر .

وجوهر الديمقراطية الاجتماعية ، هو فى تحرير الفلاحين من عبودية كبار ملاك الأرض . وتحرير العمال من الاستغلال الرأسمالى . وتحرير المهنيين والمثقفين من سيطرة المؤسسات الإعلامية والثقافية الخاضعة لنفس القوى الاستغلالية والاستعمارية فى الداخل والخارج .

ويرتبط بهذا الجوهر ، ضمان حق العمل ، والحماية من الفصل التعسفى ،

والتأمين الاجتماعى ضد المرض والشيخوخة ، والمساواة فى الأجر والحقوق القانونية بين الرجل والمرأة ، وبين جميع المواطنين ، بغض النظر عن اختلافاتهم الدينية والعقائدية .

ومن الجدير بالذكر هنا ، أن فكر عبد الناصر لا يرفض التعددية الحزبية كما يتوهم الكثيرون .

ففى عام ١٩٥٧ ، قال جمال عبد الناصر للصحفى الهندى كرانجية« **إننى أريد قبل كل شىء أن أوفر للشعب ، وخاصة الفلاح والعامل ، حرية اقتصادية واجتماعية . لأن الديمقراطية السياسية ، دون هذه الاحتياجات الجوهرية ، لن تؤدى إلا إلى التضليل . وقد أعد دستور ١٩٥٦ ، ووافق الشعب عليه فى استفتاء عام ، وهذا الدستور قائم على أساس جبهة متحدة تمثل الوحدة الوطنية ، التى كانت ضرورية لسلامة الثورة » .**

واستطرد عبد الناصر قائلا : « **إن البرلمان ستقوم فيه تكتلات ومجموعات ، وربما تكون فيه معارضة فى المدى الطبيعى للأحداث ، كما تبرز بعد ذلك طبعاً قوى سياسية جديدة . ومن المحتمل أن تكون هناك أحزاب ».**

وقد تبدو هذه الفكرة متناقضة مع هجوم عبد الناصر على أحزاب ما قبل الثورة . لكن الموقف من الأحزاب القديمة ، كان ينبع من أنها كانت جزءاً من النظام . واشترك عدد كبير منها ، وعلى الأخص أحزاب الأقلية ، فى لعبة الانتخابات الزائفة ، وخدمة السراى والمستعمرين .

ولقد عادت نفس الفكرة ـ أى الأحزاب ـ إلى الظهور فى جلسات المحاسبة للذات ، والنقد الذاتى ، التى عقدها عبد الناصر مع كبار معاونيه فى نهاية عام ١٩٦٧ ، حيث طرح هو بنفسه فكرة تكوين « حزب معارض » .

وتبقى نقطة أخيرة ، هى أن المشروع القومى الوحدوى ، إذ رفض الإتباع ، واختار الإبداع ، فإن طريقه لم يكن سهلاً .. خالياً من الألغام والحفر والصخور .. بل كان صعباً شاقاً مرهقاً . وذلك شأن كل تجربة تحمل طابع الريادة والابتكار والابداع . فما أسهل النقل والتقليد عن الأجداد أو الغرب ، وما أصعب التجديد والتطوير .. وفقاً لأنماط فكرية نابعة من ظروفنا ، تكون قادرة على مواجهة معارك صعبة لم تهدأ ، أو تتوقف .

التحالفات المشبوهة ضد المشروع القومى

١٠

واجه المشروع القومى الوحدوى ، حربا شرسة من ثلاث جهات مختلفة . استخدمت كل منها جميع أسلحتها المتاحة . من حروب دموية مباشرة ، مثل العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ ، أو حرب ١٩٦٧ ، وحروب اقتصادية ضارية وتآمر لايتوقف .

وتلك كانت حروب الجبهة الاستعمارية الصهيونية ، بقيادة المستعمرين القدامى والجدد ، وخصوصاً الولايات المتحدة الأمريكية .

أما الجبهة الثانية ، فإنها استخدمت ، أشرس الأساليب الفكرية ، والعقائدية ، والمعنوية .. باتهام العصر الناصرى بمحاربة « الاسلام والمسلمين » ، والخروج عن قواعد الاسلام ، وغير ذلك من الأسلحة . وتلك هى جبهة التيارات الاسلامية السياسية ،

المتحالفة مع النظم والقيادات العربية ، التى ترى فى المشروع الناصرى وخصوصاً جانبه المتعلق بالعدالة الاجتماعية ، أى الاشتراكية خطراً مباشراً على مصالحها .

أما الجبهة الثالثة ، فإنها تتكون من القوى الاجتماعية التى جردتها ثورة ٢٣ يوليو من امتيازاتها الاجتماعية الاستغلالية القديمة .. وخصوصاً كبار ملاك الأرض الذين خضعوا لقوانين الاصلاح الزراعى . وكبار الرأسمالية الذين خضعوا لقوانين التأميم عام ١٩٦١ .. ثم انضمت إليها القطاعات الطفيلية من الرأسمالية التى نمت وازدهرت أثناء عصر السادات .

هـذه الجبهـات الثـلاث ، هى التى أعلنت الحرب الشرسـة ضـد المشروع القـومى الوحدوى .

ولهذه الجبهات ، كتابها . ومفكروها، وصحفها ، ومنابر خطبائها ، وإذاعتها .

والظاهرة الجديرة بالتسجيل هنا ، أن التناقضات بين الجبهة الثانية ـ أى الجماعات الاسلامية ذات الأهداف السياسية ، وبين الجبهة الاستعمارية الصهيونية حقيقة لايمكن إنكارها ، كما أن تناقضاتها القديمة مع الجبهة الثالثة ، معروفة ، تسجلها صفحات التاريخ ، فضلاً عن تناقض توجهاتها الرئيسية مع هذه الجبهة .

لكن هذه التناقضات . كانت تتراجع إلى الوراء ، أمام الاتحاد الفعلى ضد المشروع القومى . ومن هنا كان على القيادة الناصرية مواجهة هذه الجبهات الثلاث ، وأخطرها طبعا الجبهة الاستعمارية الصهيونية . وهى مواجهة بدأت منذ الأيام الأولى للثورة ، واستمرت طوال حياة جمال عبد الناصر ، وبعد موته أيضا .

بعد انتصار الثورة ، والاطاحة بالنظام الملكى فى يوليو ١٩٥٢ ، بدأت المواجهة الأولى والصعبة .. ضد القوى الاجتماعية التى أطاحت بها الثورة ، وخصوصاً كبار الملاك من بقايا الاقطاع فى مصر . وهى مواجهة اتخذت من جانب بعض العائلات الاقطاعية طابع التحرر المسلح ، تزعمته أسر « لملوم » وإن كان الحسم الثورى ، قد أجهز على هذا التمرد بسرعة .

والواقع أن تحالف كبار ملاك الأرض ، وكبار الرأسمالية المرتبطين بالاقتصاد الاستعمارى ، لم يتوقف عن المقاومة . بل كان يهدأ أحيانا ، ليعاود التطلع إلى استرداد نفوذه ، عندما تبرز أية ثغرة فى نظام ثورة يوليو .

ففى بداية عام ١٩٥٤ ، انفجر الخلاف داخل مجلس قيادة الثورة . عندما حاول اللواء محمد نجيب السيطرة على السلطة وحده ، وإجهاض المشروع الثورى وتحويله إلى حركة

إصلاحية تتعاون مع قوى النظام القديم .

عندئذ تحركت الجبهة المعادية ، متحالفة مع الاخوان المسلمين ، وأحزاب ماقبل الثورة للقضاء على ثورة يوليو . أى أن الجبهة الثالثة ، من كبار الملاك وكبار الرأسمالية المرتبطين بالاقتصاد الاستعماري ، تتحرك دائما بسرعة ، ومعها التيار الديني السياسي ، لتصفية الحسابات مع الثورة .

وسبب اشتعال عداء القوى الاستغلالية فى مصر للثورة ، هو خوف هذه القوى من الاتجاه الاجتماعى للثورة الذى صاحب إنطلاقها . ففى كتاب فلسفة الثورة ، قال جمال عبد الناصر ، **إن علينا انجاز ثورتين ، وليس ثورة واحدة .. ثورة ضد الاستعمار وأعوانه لتحرير الوطن .. وثورة ضد الطبقات الاستغلالية لتحرير المواطن .**

ونظرية الثورتين ، تبين أن جمال عبد الناصر ، ومنذ السنة الأولى للثورة ، كانت له رؤية ثورية عامة ، تتجاوز نطاق التحرر الوطنى ، إلى التحرر الاجتماعى . صحيح أن هذه الرؤية العامة لم تتخذ طابعها النظرى الكامل إلا بعد صدور الميثاق عام ١٩٦٢ ، لكن الوعى منذ بداية الثورة ، بحتمية انجاز ثورتين ، يحمل فى طياته الرد على من يعتقدون أن الثورة بدأت برؤية استراتيجية عامة .

وإذا كانت المعركة ضد الطبقات المخلوعة من عرش السلطة السياسية والهيمنة الاجتماعية ، احتلت المكان الأول خلال السنة الأولى من ثورة يوليو ، فإن ذلك لايعنى أن مواجهة الاستعمار البريطانى الرابض فى أرض مصر ، كانت « مجمدة » . بل تثبت الوثائق والوقائع التاريخية . أن الاعداد لمعركة تحرير الأرض من الاستعمار بدأ منذ الأشهر الأولى للثورة .

ففى نفس الوقت الذى كان يجرى فيه تدعيم السلطة الثورية ، فى مواجهة القوى الرجعية القديمة ، كان يجرى اعداد كتائب الفدائيين الذين أشعلوا نيران المقاومة ضد جنود الاحتلال البريطانى فى منطقة قناة السويس .

ولقد كان لى شرف إعداد كتاب عن هذه المعارك ، إعتمدت فى جمع مادته على أحد القادة الكبار لهذه المعارك ، وهو المرحوم كمال الدين رفعت ، وعلى عدد من الضباط الأحرار والفدائيين الذين شاركوا فى هذه المعارك . وصدر هذا الكتاب فى أواخر عام ١٩٦٧ .

والأمر الذى تؤكده وثائق هذه الفترة ، أن توقيع اتفاقية الجلاء عام ١٩٥٤ إنما جاء **كثمرة لهذه المعارك ، بعد أن ربط عبد الناصر** بين كلمته المشهورة التى قالها عقب الثورة مباشرة . **وهى** : « على الاستعمار **أن يحمل عصاه ويرحل ، وإلا فليدفع ثمن وجوده** » .. ربط بين القول والعمل عن طريق معارك الفدائيين التى أرغمت الاستعمار على الموافقة على الجلاء .

وخلال الصراع ضد القوى الرجعية والاستعمار البريطانى ، لم يكن البعد العربى غائبا .. ذلك البعد الذى ظهر فى فلسفة الثورة تحت اسم : **الدائرة العربية .**

إذ أن الاهتمام بهذه الدائرة ، عبرت عنه عشرات المواقف منذ انطلاق الثورة .. ابتداء من حل مشكلة السودان على أساس حق تقرير المصير لإرغام الاستعمار البريطانى على الانسحاب من هناك ، مروراً بتأييد ثورة الجزائر ، ومقاومة حلف بغداد الاستعمارى ، والدعوة إلى تشكيل ميثاق عربى للدفاع المشترك ، وإفتتاح محطة صوت العرب ، وغير ذلك الكثير .

ومن هنا فإن الإمتزاج بهذه الدائرة ، سار بخطوات عملية مدروسة .. ليصل فى النهاية إلى الذروة المنشودة ، وهى استئصال الشعور القومى العربى أثناء العدوان الثلاثى ضد مصر عام ١٩٥٦ .

وخلال مرحلة الانتصارات المتلاحقة للمشروع القومى ، وخصوصا خلال الفترة من عام ١٩٥٥ إلى ١٩٦١ ، تراجعت المقاومة الرجعية ، أمام المد القومى الهائل . كما تراجعت خلال نفس الفترة ، تحركات التيارات السياسية التى تحمل اسم الاسلام .

ثم جاءت نكسة الانفصال عام ١٩٦١ ، لتكون فاتحة لتحركات رجعية جديدة بدأت فى مصر ، ورد عليها جمال عبد الناصر باجراءات حاسمة .

ثم امتدت هذه التحركات إلى الوطن العربى .. أثناء المساندة القومية للثورة فى اليمن . هنا برزت نفس الظاهرة . إذ تشكلت جبهة معادية للمشروع القومى ، تسعى إلى تكوين ماعرف باسم **الحلف الاسلامى** وهى محاولة تزعمتها إحدى الدول العربية ، واستخدمت نفس التيارات الاسلامية السياسية المعادية للمشروع القومى الوحدوى ، وبمباركة تامة من الولايات المتحدة .

وتلك كانت إحدى الفترات المعبرة عن حقيقة يصعب انكارها . وهى أن العداء

للثورة العربية ، حتى لو نبع من تيار اسلامى اعتاد صب اللعنات على الغرب ، لابد أن يقود أصحابه عمليا إلى الوقوف فى جبهة واحدة مع الغرب ، بل ومع قمته الولايات المتحدة الحليفة الأولى للعدو الصهيونى - بوعى أو بلا وعى .

أهداف هذا الحلف ، كما أعلنت ، لم تكن موجهة ضد العدو الصهيونى ، أو من أجل تحرير القدس ، أو مقاومة الاحلاف الاستعمارية ، بل كان الهدف الرئيسى هو : **« التغلغل الشيوعى فى المنطقة » وتلك هى الصيغة الشكلية المستخدمة عادة ، لمقاومة القوى المعادية للاستعمار . إذ أن هذا الاصطلاح هو الرمز المشهور لمقاومة حركات التحرر القومى فى كل مكان .**

لكن المواجهة القومية لهذه المحاولة ، بزعامة جمال عبد الناصر ، أوصلتها إلى نفس مصير التحالفات السابقة المعادية للأمة العربية ، رغم الاحتماء خلف اسم الاسلام ، الذى تتعارض مبادئه وقيمه العظيمة مع الأهداف الشريرة للقوى الاستعمارية والرجعية .

ولاشك أن اندلاع الثورتين السودانية والليبية فى عامى ١٩٦٨ - ١٩٦٩ ثم اشتعال حرب الاستنزاف ضد العدو الاسرائيلى فى نفس الفترة ، كانت الرد القومى على هزيمة ١٩٦٧ ، الأمر الذى لم يدع الفرصة لتشكيل جبهات جديدة ضد المشروع القومى لاستغلال الحالة النفسية الأليمة للأمة العربية بعد النكسة .

كما كان اليوم الحزين فى تاريخ الأمة العربية ، يوم وفاة البطل فى الثامن والعشرين من سبتمبر عام ١٩٧٠ ، هو نفس اليوم الذى شهد صباحه اختتام مؤتمر قمة عربى فى القاهرة ، لإنقاذ الثورة الفلسطينية من محنتها فى ذلك الحين ، حين وقع الصدام الدموى بينها وبين النظام الأردنى .

وكأن التاريخ شاء أن يسجل فى صفحاته ، حرص القيادة القومية على وحدة الجبهة العربية وراء الثورة الفلسطينية ، حتى آخر لحظة فى حياة جمال عبد الناصر .

لكن قصة التحالفات لم تنته برحيل القائد العظيم . بل استمرت بعد ذلك لتحقيق نفس الهدف ، وهو الاجهاز على المشروع القومى ، بعد إنتصار الثورة المضادة فى العصر الساداتى ، وإنطلاق أجهزة الاعلام التى كانت ناصرية أثناء المد القومى ، فى حملة تتارية لم يشهد لها التاريخ مثيلا ، ضد جمال عبد الناصر ، وتاريخه ، ومعاركه ، وكل ماهو ايجابى وعظيم فى تاريخ أمتنا .

وهى معركة تحالف خلالها السادات ، مع القوى القديمة فى المجتمع المصرى ، ورموزها

فى أجهزة الاعلام ، والجماعات الاسلامية السياسية ، لتنفيذ المخطط الاستعمارى القديم ، المعادى لامتزاج مصر والتحامها مع الوطن العربى .

وهو التحالف الذى وصل ذروته بعد مظاهرات الشعب المصرى يومى ١٨ ، ١٩ يناير عام ١٩٧٧ ، عندما حمل ملايين المصريين ، من القاهرة والاسكندرية إلى أسوان ، شعارات الثورة القومية الناصرية ، بل وحمل المتظاهرون صور جمال عبد الناصر .

لقد أعقب هذه الثورة التلقائية ، تشجيع نظام السادات للجماعات الاسلامية فى الجامعات وغيرها من مراكز التجمعات الجماهيرية للعمل على استئصال القوى الناصرية واليسارية .. الى جانب الأجهزة الأمنية التى قامت بحملات مكثفة ضد نفس القوى .

ولم تكن الثمرة النهائية لهذه « الجبهة » سوى المزيد من التبعية للاستعمار الأمريكى ، وتخريب الاقتصاد الوطنى ، وتشويه تطلعات قطاعات واسعة من الجماهير التى بهرها عصر الانفتاح الاستهلاكى وتدفق أموال الحقبة النفطية .

ولم تكن اتفاقية كامب ديفيد ، والصلح مع اسرائيل ، وانقلاب خريطة الاعداء والأصدقاء فى العصر الساداتى ، سوى نتيجة حتمية مترتبة على الحملة التتارية لاستئصال التراث الفكرى والنضالى والوحدوى للمشروع القومى .

وقد يسأل البعض : **لماذا انقلب جناح من التيار الاسلامى السياسى ضد السادات ثم اغتياله ؟**

الإجابة هى بعد تصفية القوى الناصرية واليسارية ، انقلب على حلفائه القدامى .. كما أن هؤلاء الحلفاء وقفوا معه فى الصراع ضد الناصرية ومشروعها القومى ، لكنهم لم يقفوا معه فى الصلح مع اسرائيل . ثم هناك عوامل أخرى . وهى أن سياسة السادات فى توجهها نحو الاستعمار والصداقة مع اسرائيل ، والتبعية الاقتصادية ، تسببت فى احداث أزمة طاحنة للنظام الساداتى اتخذت صورة المعارضة الواسعة ، مما جعله يقوم على اعتقالات سبتمبر الشهيرة .

أى أن أزمة نظام السادات ، دفعت هذا الجناح من التيار الاسلامى السياسى إلى حادث المنصة ، تمهيداً للسيطرة الكاملة على هذا النظام .

لكن فشل التحرك المسلح فى أسيوط بعد اغتيال السادات . وسرعة استقرار السلطة الجديدة ، لم يحقق طموح تلك المحاولة .

ومازالت هذه التيارات ، رغم جرائم النظام الذى أعقب عبد الناصر ، ماضية حتى

الآن فى حربها ضد عبد الناصر ومشروعه ، ولم تستفد من الخبرة التاريخية المريرة النابعة من نظام الردة الساداتى .

وفى اعتقادى أن التحالف الجديد بين حزب الوفد ، وبين الاخوان المسلمين ، لاينبع فقط من رغبة الطرفين فى احتلال موقع قوى فى مجلس الشعب ، بل لأن هناك اتفاقا هاما بينهما ، يتمثل فى العداء لجمال عبد الناصر وثورة ٢٣ يوليو .

ومن يقرأ جريدة « الوفد » يجد الأقلام الاخوانية المعروفة ، متلاحمة مع الأقلام الوفدية ، فى الهجوم المركز على المشروع القومى لثورة ٢٣ يوليو بقيادة جمال عبد الناصر .

فلا يمكن القول بأن الهدف التكتيكى ـ أى كسب مقاعد فى مجلس الشعب ـ تبرر إلتقاء الوفد المعروف تاريخياً باتجاهاته الليبرالية العلمانية المتعاطفة مع النظام الرأسمالى فى الغرب ، مع الاتجاه الاسلامى السياسى ، الذى يعادى كل ما هو غربى ، ابتداء من العلمانية ، حتى الديمقراطية ، والليبرالية ،

إنه تحالف بين القوى التى تحلم بتصفية حساباتها مع ثورة يوليو ، ومع طموح الأمة العربية فى الوحدة الذى إلتقى بجمال عبد الناصر والتف حوله .

● ● ●

المشــروع القـــومى بين الاســتمرار والاســتبعاد

١١

إذا كان الفكر القومى الناصرى ، ينطوى على رؤية صحيحة ، أثبتت الممارسة سلامتها ، فلماذا عجز هذا الفكر عن إثبات وجوده وفعاليته بعد موت جمال عبد الناصر ؟

الإجابة على هذا السؤال الهام ، تستلزم إيضاح بعض الحقائق الهامة :

الحقيقة الأولى : أن التجربة الثورية الناصرية ، اعتمدت بالدرجة الأولى على الشخصية القوية لجمال عبد الناصر . لم يكن هناك تنظيم شعبى فى مستوى هذه التجربة . لذلك يقال أحيانا ، إن الشخصية الكاريزمية ـ أى العظيمة التأثير ـ لعبد الناصر ، كانت القوة الرئيسية القادرة على تعبئة جماهير الأمة العربية ، وقيادة معاركها الظافرة أثناء

مرحلة المد القومى . وعندما اختفت هذه الشخصية ، تعرض البناء كله لأزمة طاحنة ، لم يخرج منها حتى الآن .

وتلك إحدى نقاط الضعف فى المشروع القومى الناصرى .. العجز عن بناء تنظيم يستطيع ضمان استمرار المسيرة القومية ، حتى بعد رحيل الزعيم .

ومع غياب التنظيم الجماهيرى ، المتناسب مع عمق ثورة يوليو وشخصية زعيمها ، لم يبق فى الميدان سوى العقلية البيروقراطية فى جهاز الدولة والقطاع العام . المفتقرة الى الوعى القومى الثورى ، بل وأحيانا الى الحد الأدنى من الوعى السياسى والفكرى ، بالأهداف الكبرى لثورة يوليو وامتدادها العربى .

لذلك كان من السهل على قوى الثورة المضادة ، بقيادة السادات ، أن تنجح فى انقلابها ، بل وتعتمد على معظم الكوادر الفنية والعلمية والعسكرية والاعلامية ، التى برزت أثناء الحقبة الناصرية ، فى تنفيذ سياستها الجديدة .. سياسة الإرتداد الكامل عن الخط القومى .

وهكذا يبرز أمامنا التناقض الأول فى هذه التجربة العظيمة .. فبقدر ماكان عبد الناصر ، واعيا فى كل مراحل زعامته ، بأهداف الأمة العربية ، والمتمثلة فى التحرر من السيطرة الأجنبية ، والتوحيد القومى ، وربط الثورة الوطنية بالثورة الاشتراكية ، بقدر ماعجز عن إدراك عمق الثغرة الخطيرة فى هذا البناء : **أى وحدة الجماهير خلف قيادته هو كزعيم . بدون حزب جماهيرى يستطيع مواصلة النضال فى حالة غياب هذا الزعيم .**

والحقيقة الثانية : أن الفكر الناصرى ـ خصوصا بعد الميثاق ـ استطاع صياغة مفاهيم واضحة ، بشأن القضايا المطروحة أمام الفكر العربى اليوم ، والتى تناولتها فى الفصول السابقة ، مثل هوية الأمة العربية ، والأصالة ، والمعاصرة ، وغيرها .

فالمفهوم الناصرى عن بناء الدولة العصرية ، والديمقراطية ، والعدالة الاجتماعية ، والوحدة القومية ، والتنمية الاقتصادية والحضارية المتحررة من أغلال التبعية ، هذا المفهوم مازال قادراً على توجيه القومية نحو الأهداف المنشودة .

بل إن قضية الديمقراطية نفسها ، التى يعتبرها الكثيرون من أخطر نقاط الضعف فى المشروع القومى الناصرى ، صيغت فى « الميثاق » صياغة عظيمة ، نابعة من أعماق التجربة الثورية نفسها ، دون أن تستعير من النماذج الأخرى فى العالم شرقا وغربا ، أية عناصر ،

بل جاء تحديد علاقة الديمقراطية بالثورة . والجماهير مستنداً الى أن المدرسة الأولى للديمقراطية للمواطن العربى ، هى القاعدة الجماهيرية ، فى القرية ، والمصنع ، والحى والجامعة . ومفهوم الميثاق يعتبر نموذجيا .. إذ يتضمن نقل السلطة تدريجيا من المركز الى المحليات ، وعلى كل مستوى تكون الكلمة العليا للمجلس الشعبى المنتخب .

لكن هذه الصياغة الرائعة لقضية الديمقراطية ، لم تطبق على النحو الذى يتفق معها .. بسبب عوامل كثيرة . تناولتها بشكل عام فى مقال نشر بمجلة الطليعة المصرية عام ١٩٦٦ - بعنوان الديمقراطية فى الميثاق بين النظرية والتطبيق - وسأحاول تخصيص دراسة أخرى عنها .

وترتب على هذا التناقض الثانى ، بين التحديد الفكرى الابداعى السليم لقضية الديمقراطية وعلاقتها بالجماهير والسلطة والممارسة ظهور الثغرة التى نفذ منها أعداء ثورة ٢٣ يوليو .. لإعلان الحرب « التتارية » عليها ، باعتبارها مؤامرة دكتاتورية ضد الشعب .. والتركيز على الممارسات الخاطئة المدانة . ونسيان المضمون الاجتماعى ، المتمثل فى تحرير الفلاحين من عبودية كبار ملاك الأرض ، وتحرير العمال من الاستغلال والبطش والتشريد ، وفتح أبواب التعليم على مصراعيها لأفقر الطبقات الشعبية .

وإذا كان التناقض الأول ، قد أفقد الثورة الجماهير المنظمة فى حزب حقيقى أو أحزاب يقودها تنظيم طليعى ، كما كان يحلم عبد الناصر فى السنوات الأخيرة قبل رحيله ، فإن التناقض الثانى ، أتاح الفرصة أمام الثورة المضادة لإستغلاله الى أقصى مدى .

بل إن « ثورة » السادات المضادة فى مايو ١٩٧١ ،استخدمت الديمقراطية كسلاح رئيسى فى صراعها ضد الناصرية .. وأفلحت فى خداع قطاعات كبيرة من المثقفين بشتى اتجاهاتهم ، بأن « انقلاب » مايو يستهدف سد الثغرة فى البناء الناصرى : أى الانتقال بالديمقراطية من الصياغة النظرية السلية الى الممارسات الواقعية .

والحقيقة الثالثة : أن نقطة الضعف الثالثة فى بنية المشروع القومى الناصرى ، تمثلت فى ذلك التناقض الرهيب بين القيادة الجماهيرية الفكرية والسياسية . وبين قيادة القوات المسلحة . وهو تناقض ، أو صدع خطير ، تأتى الإشارة إليه فى الباب الثانى من هذا الكتاب . والمهم أن هذا التناقض وصل الى حد خطير .. حيث أصبحت القيادة العسكرية خارج نطاق الإطار التنظيمى للقيادة السياسية فى الدولة . واكتسبت لنفسها مواقع . تحصنت بداخلها ، ورفضت أى نوع من التدخل أو الرقابة أو الحساب .

ومن المؤكد ، أن السماح للمشير عبد الحكيم عامر ، الصديق الأول لجمال عبد الناصر ، وزميل رحلته فى الكلية الحربية ، والعضو البارز فى تنظيم الضباط الأحرار تحت قيادة عبد الناصر ، السماح له - رغم كل هذه الاعتبارات - بالسيطرة على المؤسسة العسكرية شكل نقطة ضعف قاتلة .

لقد كان من الواجب - **كما يقول أمين هويدى فى كتابه الهام « حروب عبد الناصر » كان من الواجب حسم مثل هذه الأمور عند بدايتها ، وأظن أن ذلك كان سهلا وممكنا . ولكن عدم حسم هذا الخطر فى وقته ، أدى الى أن شكلت القيادة العسكرية بروزاً وورماً خطيرا ، أصبح من الصعب استئصاله » « وترتب على ذلك موقف خطير للغاية ، إذ جعل القيادة العسكرية تتفرغ لتعزيز نفوذها للاستمرار فى المحافظة على الأرض المكتسبة ، وعلى السلطات التى اغتصبتها » .**

« وأصبح - يقول أمين هويدى - التأمين الذاتى ، وليس التأمين القومى ، هو محل الرعاية والاهتمام بالمحافظة على السلطات التى اغتصبتها » .

وكانت كارثة حرب ١٩٦٧ ، هى النتيجة المنطقية لهذا الورم الخبيث فى بنية النظام الناصرى .. وعدم المبادرة فى استئصاله ، لأسباب أشير إليها فى الباب الثانى من هذا الكتاب .

تلك أبرز التناقضات المسئولة عن السرعة النسبية التى أمكن من خلالها نجاح الثورة المضادة .. باستغلال العجز عن تكوين تنظيم جماهيرى ، مصرى وقومى ، والعجز عن ربط المفهوم الرائع عن الديمقراطية بالممارسة الحية ، والعجز عن استئصال الورم الخبيث فى قيادة القوات المسلحة ، قبل استفحال خطر هذه القيادة ، المسئولة عن مأساة حرب ١٩٦٧ .

وباستغلال نقاط الضعف تلك نجحت اللعبة الساداتية « الدكتاتورية » و « الشمولية » استبدلها « بديمقراطية » ، وانعدام التنظيم الجماهيرى استغله فى التضليل باسم وجود « تنظيم سرى » ، ثم القضاء عليه .

واستغلال هزيمة ١٩٦٧ ، بالظهور كقائد لنصر حرب أكتوبر ، رغم أن إعادة بناء الجيش ، ووضع خطط العبور ، وبناء المظلة الصاروخية ضد الطيران الاسرائيلى - كل هذا أنجزه عبد الناصر قبل موته .

لكن ثغرات أية ثورة فى التاريخ الانسانى - تصبح الأسلحة الأولى فى

أيدى أعدائها ، لمقاومتها ، واضعافها ، والانقضاض عليها .

ذلك هو الدرس الدائم والخالد لجميع الثورات التى انهزمت ، أو تعرضت لنكسة ، أو حتى لفظت أنفاسها ، وكما سبق أن قلت فى الفصول السابقة ، فإن الانتصارات العملاقة ، يمكن أن يصاحبها أخطاء عملاقة ، بل وهزائم عملاقة تتناسب مع عمق كل ثورة .

وتبقى بعد ذلك مجموعة نقاط جوهرية ، يجب إبرازها قبل اختتام هذا الباب من الكتاب ، ويمكن تركيزها فى الآتى :

● إن جميع الثورات التى انطلقت فى التاريخ العربى الحديث ، كانت أشبه بالروافد التى تغذى النهر العظيم .. **المتمثل فى الوعى الشعبى .. لم تذهب هباء ، ولم تتحول نكساتها الى ضياع يستلزم استبعادها والبحث عن جديد بديل . أى أن التاريخ العربى ، بل والتاريخ البشرى كله ، يتحرك وفقاً لقانون التكامل ، وليس الاستبعاد .**

ولكن يبدو أن كثيرا من المثقفين العرب ، وخصوصا التراثيين الجدد ، عاجزون عن إدراك هذه الحقيقة .. وتتجه أنظارهم بحثا عن الحقيقة الكاملة « المطلقة » الخالية من الشوائب والأخطاء والنكسات .. رغم أن « المطلق » يوجد فقط فى مجال الدين ، **ولاتعرفه** السياسة أو الثورات .

ومن المثير للدهشة ، **أن هؤلاء التراثيين الجدد** ، يرفعون الشعارات الصارخة ضد الغرب والتغريبية ، والدفاع عن الأصولية الاسلامية ، ومهاجمة المتأثرين بالمستشرقين والثقافات الأجنبية ، **فى نفس الوقت الذى يستخدمون مفاهيم ، وتعبيرات ، ومناهج هذه الثقافة ، مثل « الايديولوجيا » و« النسق » و « المنظومة » و « الاحصاء الكمى » و« الديالكتيك » .. وعشرات التعبيرات الأخرى .**

● ومن جهة أخري ، فإن الحديث عن « انهيار » أو « فشل » المشروع القومى الناصرى ، مثلما فشل من قبل المشروع التحديثى لمحمد على ، والمشروع العلمانى الليبرالى لمرحلة ماقبل ثورة ٢٣ يوليو ، ينطوى على مغالطات خطيرة .. تستهدف الوصول الى نتيجة واحدة : **إذا كانت العلمانية ، والليبرالية ، والقومية ، والاشتراكية ، قد فشلت ، فلايوجد سوى بديل واحد ، هو المشروع الاسلامى السياسى للجماعات الدينية ، لأنه الوحيد الذى لم يأخذ فرصته فى التجربة .**

والاخطاء الكامنة فى هذه المغالطة ، يصعب حصرها .. أهمها أن مصر لم تشهد قبل ٢٣ يوليو إختبار مشروع علمانى ليبرالى متكامل ، بل شهدت منذ ثورة ١٩١٩ ، حتى عام ١٩٥٢ ، فترة ست سنوات فقط ، أثناء وجود الحزب المعبر عن هذه الاتجاهات فى الحكومة ، حزب الوفد ، فى ظل السلطة الاستعمارية والملكية الاستبدادية .

فهل هذا يمثل إختباراً للاتجاه العلمانى الليبرالى ؟

أما مشروع محمد على ، الوالى الألبانى الطموح ، فمن الصعب تصنيفه ضمن المشاريع القومية . رغم اصلاحاته العظيمة .

وفيما يتعلق بالمشروع القومى لثورة ٢٣ يوليو ، فإنه لم يفشل ، أو ينهار . فما أظن أحداً يدعى أن ثورة يوليو قد انهارت فى مصر .. وهى الركيزة الأساسية للمشروع القومى .

والقول بتفريغ منجزات هذه الثورة من مضمونها ، ينطوى أيضا على مغالطات ، وتجاهل للصراع الدائر فى مصر الآن .. بين القوى الشعبية المدافعة عن قوانين الاصلاح الزراعى ، والقطاع العام ، ورفض الأحلاف العسكرية ، مجانية التعليم ، وعشرات من الانجازات الأخرى ، وبين القوى المعادية .. التى تحلم منذ الردة ، فى القضاء على هذه الرموز العظيمة المعبرة عن بقاء القواعد الأساسية للثورة . فكيف نتحدث عن إنتصار ثورة ٢٣ يوليو ، ونحتفل بها كل عام ، ونحكم على مشروعها القومى بالفشل والانهيار ؟

أما عن عدم اختبار البديل الدينى ، فإننا نقول إن ٤٠٠ سنة من الحكم العثمانى « الاسلامى » تكفى .

والسبيل الوحيد لحل إشكالية وجود ركائز قوية لثورة يوليو ، ووجود فكر ابداعى أصيل ، وخبرة ثمينة لاينكرها سوى أغبياء الأعداء ، وبين افتقاد القوى السياسية فى وطننا العربى ، القادرة على الانطلاق بهذه الثروة ، وتطويرها ، لاتقديسها . لن نصل إليه من خلال الجدل والمزيد من الجدل . بل من خلال خلق البديل غياب القائد . **فما أظن أن من الممكن ، الامساك بمصباح « ديوجين » للبحث عن زعيم يملأ فراغ جمال عبد الناصر .. و « ديوجين » كما نعرف كان فيلسوفا يونانيا ، يمسك فى يده مصباحاً فى وضح النهار ، ويجيب على من يسأله عما يبحث : « إننى أبحث عن الحقيقة » !**

فراغ عبد الناصر ، لن يعالج بالبحث عن عبد الناصر جديد .. ولابالبحث عن

مشروع بديل .. بل عن طريق التحرك الايجابى.. فمن المستحيل قبول مايجرى فى الساحة العربية الآن وخصوصا فى مصر .. **حيث يوجد الفكر المرتبط بالخبرة والممارسة والانتصارات بلا حركة مؤثرة فى الواقع ، بينما يوجد فى الطرف الآخر حركة متصاعدة لاتملك أى فكر ، مستنير يستطيع أن يكون بديلاً للنهضة المنشودة .**

ولانستطيع ترك الجماهير فى حيرة .. بين إختيار فكر عظيم بلافعل معاصر ، أو اختيار فعل مؤثر الآن ، ويفتقد الفكر والبرنامج والخبرة .

والقضاء على هذه الحيرة ، يبدأ ببناء الجبهات الوطنية الداخلية فى كل بلد عربى ، من القوى القومية بمختلف اتجاهاتها .. فمن العبث الآن ، الاصرار على واجهة شكلية تحمل هذا الاسم أو ذاك .. ومن المستحيل الاستغراق فى قضايا خلافية فرعية . تحت ضغط الرغبة فى التمايز والاستقلالية .

إن بناء هذه الجبهات ، هو المقدمة الصحيحة لبناء الجبهة القومية العربية الواحدة ، لمواصلة مسيرة المشروع القومى الناصرى ، والرد على من يدعون انهيار ، وفشل هذا المشروع .

وبعد .. فإن هذا التقييم أو التقويم للفكر الناصرى وممارساته لاينبع من التمجيد أو التقديس .. لأن موقفى الفكرى ، باعتبارى أحد المعبرين عن التيارات الاشتراكية اليسارية ، يجعلنى « محصنا » ضد إتهامى بالتعصب للناصرية . إنما كتبت هذه الكلمات ، من واقع إيمانى بالخبرة العظيمة لهذه التجربة ، ومن ثقتى بقدرتها على العطاء المتجدد .

●●●

البــاب
الثـانى

دور جمال عبد الناصر
فـى حـركـة التــاريخ

١

اذا كان تـاريـخ الأمم ، هـو بمثـابـة ذاكرتهـا القـوميـة التى تختزن مـلاحم صعـودهـا وانحدارها ، انتصاراتها وهزائمها ، تراثها الثقافى المعبر عن شخصيتها ، والعناصر الدخيلـة على هذا التراث . فمن الضرورى الحفاظ على هذه الذاكرة وحمايتها من التشويه والتزييف .

إن علمـاء النفس ، يعرفـون الاختـلال الـذى يطرأ على التـوازن العقلى والنفسى . إذا مافقد الانسان ذاكرته . والشعوب مثل الأفراد ، تصاب بالأمراض ، بل ويتهـددهـا الفنـاء أو الـذوبـان فى كيـان أمم أخرى ، فى حـالـة فقـدان ، أو ضيـاع ، أو تشويـه ذاكرتهـا .. ويمكن أن يسفر ذلك عن فقـدان جيل أو أجيـال للاتجـاه السليم ، وفقـدان الوعى القومى والاستسلام لمخططات الاعداء .

ولاشك أن تاريخ الأمة العربية خلال مرحلة قيادة جمال عبد الناصر ، تعرض لهجمات شرسة ، استهدفت تشويهه وتجريده من جوهره الحقيقى ، وتصوير معارك الحقبة الناصرية بخطوط سوداء قاتمة ، لاتحمل سوى الهزائم ، والاستبداد ، والخراب الاقتصادى ، والانحطاط الأخلاق .

ولم يكن الهدف من هذا التشويه ، جمال عبد الناصر كفرد أو زعيم ، بل تشويه وتمزيق القيم القومية والنضالية التى يجسدها ، وتمجيد تيار الارتداد المضاد لهذه القيم .

والواقع أن حملة تزييف تاريخ الفترة الناصرية ، تعتبر الامتداد المنطقى للمؤامرات التى واجهتها ثورة ٢٣ يوليو فى مصر منذ انطلاقها .. وهى مؤامرات اتخذت مختلف الأشكال ، واستخدمت العديد من الوسائل .. من محاولات الانقضاض ، والالتفاف ، والتدجين ، والضغط الاقتصادى ، حتى التدخل العدوانى المسلح ، وأخيراً الانقلاب عليها من الداخل ، عن طريق الرجل الذى اختاره عبد الناصر ليكون نائبا له قبل وفاته بفترة قصيرة .

والسؤال الكبير الذى ستحاول هذه الدراسة الاجابة عليه هو :

هل كان جمال عبد الناصر عملاقا يشكل القوى التاريخية بمشيئته . أم هو ببساطة أداة تعبر من خلالها هذه القوى عن نفسها ، وماهو الأثر الحقيقى لقيادة جمال عبد الناصر على تاريخ الأمة العربية . وقارة أفريقيا ، وحركة عدم الانحياز بلا مبالغة أو تزييف ؟

ولكى تكون الاجابة على هذا السؤال مستندة الى أسس علمية ، ينبغى أولا القاء بعض الأضواء على الآراء المختلفة بالنسبة للتاريخ كعلم يتأثر بالصراع الايديولوجى ، وينظر إليه كل مؤرخ ، من خلال فلسفته المتفقة مع التيارات الاجتماعية والدولية السائدة فى العالم اليوم . إذ أن إختلاف المؤرخين المعاصرين فى تفسير أحداث التاريخ القديم والحديث ، وخصوصا أثناء الحقبة الناصرية ، يستحيل عزله عن خضوع العلوم الانسانية بشكل عام ، والتاريخ بشكل خاص ، للصراع الايديولوجى ، والخلافات العميقة بين النظم الاجتماعية السائدة فى عالمنا .

والتركيز على العوامل التى جعلت من جمال عبد الناصر ، زعيما تاريخيا يتحدى بعد موته جميع خصومه الكبار والأقزام على السواء .

● ● ●

هناك فرعان أساسيان للدراسات التاريخية . يشار إليهما عادة بفلسفة التاريخ . **الأول :** هو التحليل الفلسفى لعلم التاريخ ، أى محاولة تحديد منطق ومفاهيم وأساليب

عمل المؤرخين . **الثانى :** محاولة اكتشاف معنى أو دلالة أو اتجاهات المسيرة التاريخية.. والقوى المحركة لها ، والدور المحدد للجماهير والظروف الاجتماعية والأفراد والأفكار .. أى مجموع العناصر التى تشكل هذه القوى .

والخلاف بين فلاسفة التاريخ حول هذه القضايا كثيرة وعميقة .. فهناك من يرى أن التاريخ عبارة عن حلقات منفصلة ، تمثل كل حلقة حضارة تولد وتزدهر ثم تموت .. لايوجد رابط بينها . ومن أبرز فلاسفة هذا الاتجاه « سبنجلر » (١٨١٨ ـ ١٨٨٧) صاحب المؤلف المشهور (أفول الغرب) و «تيجارت» فى مؤلفيه (تطور التاريخ ـ ١٩١٨) و (نظرية التاريخ ـ ١٩٢٥) .

كما ذهب الى نفس الاتجاه « سوركين » فى كتابه « الحركة الاجتماعية والثقافية » (١٩٣٧ ـ ١٩٤١) .. وأيضا «أرنولد توينبى» رغم استخدامه المنهج التجريبى ، ومحاولته استخلاص الحقائق من خلال هذا المنهج .

بينما يعتقد فريق ثان من فلاسفة التاريخ ، بالحركة الصاعدة المتصلة الحلقات للتاريخ ، باعتبارها الجوهر الحقيقى لمسيرتـه..رغم جميع النكسات المؤقتة .. وهى حركة تتجه دائما نحو الأفضل . ومن أبرز أنصار هذا الاتجاه ، الفيلسوف الفرنسى « كوندرسيه » (١٧٤٢ ـ١٧٩٤) والفيلسوف الالمانى « هيجل » (١٧٧٠ ـ ١٨٣١) و « أوجست كونت » (١٧٤٨ ـ ١٨٥٧) و« كارل ماركس » (١٨١٨ ـ ١٨٨٣) .

واذا كانت الخلافات حول معنى أو دلالة أو اتجاهات المسيرة التاريخية كثيرة وعميقة ، فإن الخلاف داخل كل اتجاه حول الأسباب الحقيقية الدافعة لإنحدار أو جمود أو صعود الحركة التاريخية ، أشد وأعمق .

ذلك أن « الجبرية » التى تحكم منهج فلاسفة الحركة الدائرية المغلقة للتاريخ ، والتى عبر عنها توينبى بقوله « **إننى حقا أقمت الدليل على أن الحضارات زائلة لامحالة . غير أن هذا لايمنع من أن الانسان ، يمكنه أن يفلت من « الجبر » .. ولكن ليس من اليسير على الكائن البشرى ، أن يكون بشراً حقاً ، ولاعلى الحضارات البشرية أن تسلم من الموت** » .

ويقابل جبرية زوال الحضارات ، أو انحدار حركة التاريخ ، نظرية « الحتمية التاريخية » لصعود التطور الى أعلى وهى حتمية عقلية خالصة عند هيجل ، ومادية ديالكتيكية وتاريخية عند ماركس .

إذ أن هيجل يرى أن الفكر ، أو الفكرة ، أساس كل موجود .. والفكر الذى يعنيه ، هو الفكر الأعلى المطلق ، الذى يوجه الكون .

والتاريخ - وفقا لهذا المفهوم - هو عملية تطور طويلة «مقدرة» سلفا، يأخذ فيها كل حادث أو ظرف مبرراته على ضوء مسار التاريخ فى مجموعه .

ومن هنا ، فإن الحركة الصاعدة للمسيرة التاريخية ، تحكمها « إرادة عليا » ، لايملك الانسان الفرد سبيلا الى التدخل فى اتجاهاتها .

بينما يرى ماركس ، أن الحركة الصاعدة للتاريخ لاتحكمها الفكرة المجردة التى يتحدث عنها هيجل ، بل تخضع هذه الحركة لقوانين يمكن الكشف عنها ، وأن الثورات الكبرى ، هى التعبير الكامل عن الانتقال بالمجتمعات من الأدنى الى الأعلى ، نتيجة لاكتمال الظروف المادية التى تبرز الضرورة التاريخية لهذا الانتقال .

وذلك يعنى ، أن الظروف الاجتماعية . التى تتشكل من قوى الانتاج ، وعلاقات الانتاج ، والأفكار ، هى التى تحدد درجة الوعى بحتمية التغيير ، وليس الوعى المجرد هو الذى يخلق هذه الظروف .

• • •

لكن الحتمية التاريخية ليست « قدرية » إنها لاتعنى - مثلا - انهيار الاستعمار أو تحقيق الوحدة العربية بمعزل عن إرادة ووعى ونضال الشعوب . إنما كل ماتعنيه ، هو الكشف عن إمكانية كامنة فى مرحلة محددة من التاريخ ، يتعين تحويلها الى حقيقة مادية . عن طريق « قابلة » التاريخ ، أى ثورات الشعوب .

واذا كان فلاسفة التاريخ فى أوروبا ،قد حاولوا تفسير المسيرة التاريخية للبشرية واختلفوا حول دلالاتها ومحركاتها وغاياتها النهائية ، فإن التاريخ العربى ، يحتاج من المفكرين والمؤرخين العرب الكثير من الأبحاث والدراسات ، للكشف عن دلالاته ، واتجاهاته الرئيسية ، كضرورة حتمية لفهم نزوعات التاريخ التى لم تتحقق بعد .. إذ أن فهم فلسفة التاريخ العربى ، تتيح لنا الاسهام الواعى فى تخطيط حاضرنا ومستقبلنا .. بمنطق متماسك يجعل صورة المستقبل الآتى متممة لصورة الماضى .. وتحويل الحاضر الى جسر صلب يصل بين الاثنين .

وفى اعتقادى أن التاريخ العربى الحديث ، يستحيل فصله عن جذوره الممتدة الى ظهور الاسلام . وقيام الدولة العربية الاسلامية الأولى فى المدينة . وبغض النظر عن التعاريج والمنحنيات والقفزات والانهيارات التى صاحبت هذا التاريخ ، فإن الرؤية الموضوعية المجردة عن الأهواء . تكشف عن ثلاثة اتجاهات ، أو أهداف ، أو نزوعات ،

كانت بارزة خلال التجربة التاريخية الطويلة . نستطيع حصرها فى الوحدة،والتقدم، والعدالة الاجتماعية .

والوحدة برزت ابتداء من وضع نهاية للكيانات القبلية المتنافسة والمتقاتلة فى الجزيرة العربية ، مرورا بعهد الفتوحات الكبرى فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين ..وإن كان هذا المد الوحدوى ، إصطدم بالواقع المتعدد الملامح والقسمات وصعوبة الاندماج بين ماهو قومى عربى ، وماهو غير عربى ، على أساس التوحيد الدينى فقط .

وثانى هذه النزوعات ، أو الأهداف . كان التقدم .. والذى تمثل فى التفاعل العربى الخلاق مع التراث العلمى والثقافى العالمى من حوله ، وإثراء هذا التراث ، وبروز اتجاه العقلنة الواعية .. عقلنة الدين بالارتفاع به عن عبادة الأوثان والكواكب الى عبادة إله واحد . وعقلنة العلم بفصله عن السحر والكهانة . وعقلنة الفلسفة بتحديد إتجاهها نحو البحث فى الطبيعة وماوراءها وفصلها عن الدين ، وعقلنة التراث الثقافى للشعوب التى اندمجت فى الدولة الاسلامية . عن طريق تنقية هذا التراث من الخرافات والأساطير ، والتفاعل مع كل ماهو ايجابى انسانى فيه ، والاستفادة منه فى تطوير الثقافة العربية .

ومن أبرز ملامح هذا الاتجاه إقامة مراكز الترجمة ، وتأسيس المكتبات،والدمج بين العبادة والتعليم فى المساجد . والسعى الدائم نحو التحضر ، ومواكبة أحدث ما أنتجه التقدم العلمى ، واعتبار الحرية فى شتى الميادين الفكرية والسياسية ، هدفا عظيما لتحقيق انسانية الانسان .

والعدالة الاجتماعية . سمة رئيسية للاسلام . برزت منذ ظهور دولته الأولى فى المدينة ، وظلت على الدوام مطلبا رئيسيا للشعوب الاسلامية .. وإن اتخذت خلال المسيرة التاريخية الكثير من الأسماء .. لعل أحدثها مانطلق عليه فى عصرنا الاشتراكية .

● ● ●

وقد ظلت هذه الاتجاهات ، أو الأهداف الثلاثة ، مصاحبة للتاريخ العربى ومحركة لمسيرته ، فى كافة مراحله .. وإن كانت فى الماضى تتحرك بمعزل عن الوعى العربى الكامل بها .. وهى صورة أشبه بالضرورة التاريخية البعيدة عن إطار الوعى ، حتى ظهرت فى تاريخنا الحديث ، أولى مراحل الممارسة العربية الانسانية الواعية بحركة التاريخ وفلسفته واتجاهاته ، وتحويل النزوعات الكامنة فى اتجاه التاريخ ، الى وعى متطور ، يربط بين الممارسة والفعل ، وبين الوعى بنتائج هذه الممارسة .

وكان انفجار ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى مصر . وبروز جمال عبد الناصر قائد هذه الثورة ، من أبرز الظواهر الفريدة المعبرة عن انتقال حركة التاريخ من ميدان الضرورة

الى ميدان الممارسة الحرة الواعية باتجاهاته .

● ● ●

ولعل المقدمة التى مهدت بها لظهور جمال عبد الناصر ، تجيب الى حد ما ، على الجزء الأول من السؤال الذى طرحته فى بداية هذه الدراسة . وهو :

هل كان الرجل عملاقا يشكل القوى التاريخية بمشيئته ، أم هو ببساطة أداة تعبر من خلالها هذه القوى عن نفسها ؟ وهو نفس السؤال الذى طرحه « شارل كريميانز » فى كتابه (العرب والعالم) .

وأقول أن اتجاهات التاريخ العربى ، تجيب على الجزء الأول من السؤال فقط أى أنه لم يشكل القوى التاريخية بمشيئته ، لأن اتجاهات التاريخ ، كما سبق أن أشرنا ، تتحرك وفقا لنزوعات أو أهداف كامنة فى أعماقه . متفاعلة مع الظروف الاجتماعية السائدة فى كل عصر ، ومعبرة عن نفسها فى صورة الضرورة للتحول من عصر الى عصر ، سواء وعينا بهذه الظروف أو لم نع بها .

أما عن الجزء الثانى من السؤال وهو : هل كان عبد الناصر مجرد أداة تعبر بها القوى التاريخية عن نفسها ، **فإنه لم يكن مجرد فرد أو زعيم يعبر عن ضرورة تاريخية ،** إنما كان أكبر وأعظم من ذلك . فقبل عبد الناصر ، وبعده ، ظهر عشرات من القادة والمفكرين والحكام ، يملكون من الوعى التاريخى ، ويدركون اتجاهاته وضروراته ، ولكن بدون قدرة على تحويل هذا الوعى الى ممارسة فعالة حيّة ، تؤثر فى الشعوب العربية من المحيط الى الخليج ، وتحدث الزلزال السياسى الهائل الذى أحدثه جمال عبد الناصر .

هنا لابد من إعادة طرح السؤال الذى تثار حوله الخلافات بين فلاسفة التاريخ والمؤرخين ، وهو : **ماهو الحجم الحقيقى لدور الأبطال أو الزعماء فى حركة التاريخ ؟**.

إن المهتمين بدراسة التاريخ ، وعلماء الاجتماع ، يجيبون إجابات مختلفة على هذا السؤال ، فدور الفرد فى التاريخ ، كان ولازال ، قضية تختلف حولها الآراء . فى الماضى البعيد كانت الرؤية للتاريخ تمتزج بالأساطير . وكان الأبطال ـ بل والآلهة ـ هم وحدهم الذين يصنعون التاريخ . ومع بداية ظهور التناول العلمى للتاريخ حدث رد فعل عنيف لهذه الرؤية الساذجة . أسفر عن إنكار أى دور فعال للأفراد ، واعتبار الأحداث التاريخية ، إما ثمرة لتطور خفى يدفع التاريخ البشرى نحو غاية عليا ، دون وعى من الأفراد ، بل وفوق إرادتهم ، أو أن هناك حتمية « جبرية » غامضة ، تحكم على التاريخ

بالدوران فى حلقات مفرغة ، وغير ذلك من الاتجاهات .

ومع أن فلسفات حديثة للتاريخ ، عادت من جديد تعتبر التاريخ كله من صنع بعض الأفراد ، إلا أن هذه الفلسفات اعتبرت الأفراد ، أو الأبطال ، الذين يصنعون التاريخ يقفون خارج المسيرة التاريخية ، ويتحكمون بإرادتهم فى تحديد مجراه ، دون أى اعتبار للظروف الاجتماعية والتاريخية .

وتلك نظرة يرفضها المؤرخون المعاصرون ويعتبرونها بعيدة عن الرؤية العلمية الموضوعية لمختلف العوامل التى تحكم مسيرة تاريخ كل أمة ، وتاريخ البشرية جمعاء .

والواقع أن تأثير بعض الزعماء فى تاريخ أوطانهم ، مثل نابليون ، ولينين ، وماوتس تونج وغاندى ، وجمال عبد الناصر ، وغيرهم يستحيل انكاره . ولايمكن اعتبار حاجة الظروف الاجتماعية عمن يعبر عنها ، أو الضرورة التاريخية التى تحتم ظهور من يجسد اتجاهاتها ، هى وحدها المسئولة عن ظهور الأحداث التاريخية العظمى التى صنعها هؤلاء العظماء .

« فالبطل أو الزعيم الذى يحدث آثاراً عميقة فى تاريخ وطنه ، ويمتد تأثيره ، الى خارج حدود هذا الوطن ، هو ظاهرة فريدة لاتتكرر كثيراً ، لأنه يملك صفات شخصية لاتقف عند حدود القدرة الفكرية على استيعاب حقائق عصره والتفاعل معها فقط ، بل يملك صفات أخرى نادرة . مثل التأثير العميق فى الجماهير ، والقدرة على تعبئة أمته ، والهاب طموحها لتحقيق مايجول فى وجدانها من آمال ».

ثم أن الزعيم التاريخى يستطيع تحديد أهداف المرحلة التاريخية التى يجتازها وطنه ، ويملك القدرة التكتيكية على اختيار الأساليب المناسبة للمعارك الجزئية وصولا الى تحقيق الأهداف الاستراتيجية العامة .

وذلك يعنى أن الزعماء العمالقة كما يطلق عليهم أحيانا ، هم مجموعة صفات وقدرات شخصية ، فكرية ، جماهيرية ، تنظيمية ، متحدة ، برباط لاينفصم .

وتتكامل عبقرية القائد التاريخى ، عند ادراكه للقسمات والخصائص التى تميز بيئته الاجتماعية . وامتلاكه للوعى التاريخى ، وتفاعله مع مختلف العوامل المحلية والاقليمية والعالمية ، وصولا الى الأهداف المنشودة . والواقع أن العظماء فى التاريخ . هم من يمثلون قوى تاريخية كبرى . وهم ينقسمون الى نوعين :

● نوع بمثابة أدوات لهذه القوى ، مثل نابليون وبسمارك . فهم يركبون موجة التاريخ ، بسبب ظروف لم يشتركوا فى خلقها .

● ونوع يعبر عن قوى تاريخية ساعدوا هم أنفسهم على توجيهها وتفجيرها ، لذلك فهم يتركون بصماتهم الواضحة فى التاريخ ، مثل كروموبل ولينين .

● ● ●

ولاشك أن الغالبية العظمى من المؤرخين والمفكرين والزعماء فى العالم ، تضع جمال عبد الناصر بين النوع الثانى ، أى النوع الذى يترك بصماته الواضحة فى التاريخ .

فكيف استطاع هذا الزعيم العظيم فى فترة زمنية قصيرة نسبيا ، الاسهام الفعال فى احداث تغيير ثورى عميق . ليس فقط داخل بلده مصر ، إنما امتد هذا التغيير الى أمته العربية ، وقارة افريقيا ، ودول عدم الانحياز ؟

هنا تبرز الأهمية الكبرى للالتقاء الفريد بين الضرورة التاريخية ، وبين القائد الفذ القادر على تحويل هذه الضرورة ، من إمكانية نظرية الى حقيقة واقعية فاتجاهات التاريخ العربى ، أو نزوعاته ، كانت تحمل فى ثناياها دائما طموح وآمال وشعوب هذه المنطقة - نحو التحرر - والوحدة ، والتقدم والحرية .

والتناقضات الاجتماعية بين هذه الشعوب ، وبين من يقفون ضد أهدافها ، من مستعمرين واقطاعيين واستغلاليين ، كانت فى نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينيات من هذا القرن ، قد وصلت ذروتها . **وكانت مصر بصفة خاصة ، هى أضعف حلقة فى السلسلة الاستعمارية الرجعية التى تسد الطريق أمام انطلاق الشعوب العربية نحو أهدافها ، وكانت أيضا أهم مركز لتحطيم هذه السلسلة الجهنمية .** والمقصود بالحلقة الأضعف ، هو وصول التناقضات الاجتماعية الى ذروتها بين النظام الملكى المتحالف مع الاستعمار والاقطاع والاحتكار ، وبين القوى الوطنية من عمال وفلاحين ومثقفين وبورجوازية وطنية .

وبعد النكبة العربية فى فلسطين ، تعاظمت القوى الوطنية المصرية ، نتيجة لبروز تنظيم الضباط الأحرار فى الجيش بقيادة جمال عبد الناصر ، وتجاوبه مع أهداف الحركة الوطنية المعادية للثالوث الرهيب الذى كان يسيطر على مصر ، ثالوث ، الاستعمار ، والاقطاع ، والفئات العليا من الرأسمالية المرتبطة بها .

ولأن الجيش كان القوة المنظمة القادرة على اطلاق الشرارة الأولى للثورة وكان تنظيم الضباط الأحرار قد استكمل استعداده للحظة الحاسمة ، فإن تحرك هذا الجيش فى الثالث والعشرين من يوليو عام ١٩٥٣ . كان استجابة لضرورة تاريخية تبحث عمن يعبر عنها . ويصل الى أهدافها .

وكانت الأهداف الستة التى استند إليها الجيش فى تحركه . تعبر عن نفس الأهداف التى حملتها القوى الوطنية المصرية . وهذه الأهداف هى :

١ ـ القضاء على الاستعمار .

٢ ـ القضاء على الاقطاع .

٣ ـ القضاء علىالاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم .

٤ ـ اقامة عدالة اجتماعية .

٥ ـ اقامة جيش وطنى .

٦ ـ اقامة ديمقراطية سليمة .

وقبل أن نتحدث عن ثورة يوليو وأثرها بعد ذلك على العالم من حولها ، ينبغى أولا استكمال الجانب الفكرى المتصل بالعلاقة بين شخصية جمال عبد الناصر ، وبين الظروف المصرية والعربية والافريقية وحركة عدم الانحياز التى أحدث فيها تأثيراً عميقا . أو لنقل بين هذا القائد الفذ، وبين الضرورة التاريخية لانجاز ماتحقق من أعمال .

إن الثورة الحقيقية كالزلزال ، لايتوقف تأثيرها عند حدود مركز انطلاقها ، بل يمتد هذا التأثير خارج هذه الحدود ، لتحدث تغيرات وتداعيات متتالية الدوائر . فإذا كان مركز الزلزال ، هو بالضرورة الأعنف حركة ، والأكثف تحركا ، فإن محيطات متتالية أكبر ، تتأثر به بدرجات متفاوتة ، تتفق مع قوة الزلزال نفسه .

ولأن ثورة ٢٣ يوليو ، كانت عميقة التأثير ، أنهت عصرا مظلما فى مصر وفتحت الأبواب أمام عصر جديد ، فمن الطبيعى ألا يقتصر تأثيرها على مصر وحدها ، شأنها فى ذلك شأن الثورات العظمى فى التاريخ ، مثل الثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر ، والثورة الاشتراكية فى روسيا عام ١٩١٧ ، والثورة الصينية عام ١٩٤٨ .

فماذا كانت صورة العالم عند قيام ثورة ٢٣ يوليو :

● العالم العربى ، كان يعانى من نفس أزمة النظام المصرى قبل ٢٣ يوليو . لم تكن أزمة النظام الملكى الاستعمارى فى مصر ، سوى إحدى حلقات أزمة أوسع وأعمق .. تشمل كل الأنظمة الحاكمة حول مصر ، سواء كان استعمارية مباشرة ، أو بواسطة أعوان يحققون نفس الأهداف الاستعمارية ، أو أسر حاكمة ذات هيكلية قبلية متخلفة .

وكما قلنا من قبل ، **كان المجتمع المصرى هو أضعف حلقات هذه السلسلة المعقدة من السيطرة الاستعمارية والرجعية والقبائلية ، لذلك بدأت منه**

الثورة ، وإن كانت الأزمة شاملة من المحيط الى الخليج . وكانت غالبية الشعوب العربية فى حالة نضال لايتوقف ضد هذه الهيمنة ، وإن كان الوصول الى أهداف محددة لهذا النضال - لم يتحقق إلا بعد انفجار الثورة فى قلب الدائرة العربية .

● وكانت القارة الأفريقية فى حالة استيقاظ ، بعد ليل استعمارى طويل مرير . كانت فى بداية تحرك ثورى من أجل استقلالها ، وبحث عن ذاتها وهويتها ، رغم الهيمنة الاستعمارية فى ذلك الحين ، والتى كانت تبدو أشبه بعملاق أسطورى من الصعب التغلب عليه .

● وفى نطاق ما أطلق عليه بعد ذلك اسم العالم الثالث ، الذى خرجت منه حركة عدم الانحياز ، لم تكن غالبية هذه المجموعة من الدول قد حققت انتصارها على الاستعمار ، وبالتالى لم تكن شخصيتها المستقلة قد برزت بعد على المسرح الدولى .

● وكان عالم مابعد الحرب العالمية الثانية ، يحكمه استقطاب حاسم ، بين الدول الرأسمالية بزعامة الولايات المتحدة ، والدول الاشتراكية أو التى اختارت طريق الاشتراكية ، بزعامة الاتحاد السوفيتى .

وكانت سحب الحرب الباردة تسود العالم .. تتحول أحيانا الى حرب ساخنة محدودة ، مثلما حدث فى كوريا . ثم فيتنام .

● ● ●

تلك كانت أبرز معالم صورة العالم عند انطلاق ثورة يوليو .. بكل ماتعبر عنه من ملامح ، وماتجسده من ضرورة تاريخية لانهيار النظام الاستعمارى العالمى الذى سيطر على معظم بقاع العالم عدة قرون . وإعادة الشتات العربى الى جذوره القومية ، وتحقيق أمله العميق فى الوحدة ، ومساعدة القارة الأفريقية فى نضالها من أجل التحرر والاتحاد بين بلدانها . والانتقال بالاستقلال الوطنى للبلاد الحديثة الاستقلال ، الى آفاق البحث عن طريقها المستقل فى عالم يحكمه الاستقطاب ، وتخيم عليه الحرب الباردة ، بل ويتهدده خطر الحرب النووية .. أى التجمع وتشكيل ماأطلق عليه بعد ذلك اسم العالم الثالث . ومنه انبثقت حركة عدم الانحياز .

فهل كان لدى عبد الناصر الوعى الكامل بدلالة مايجرى من أحداث حوله ؟ هل كان يعى الضرورة التاريخية التى تحتم احداث تغيير جذرى فى أمته العربية ، وقارته الأفريقية والدول المنطلقة من قيود السيطرة الاستعمارية ؟

لكى تكون اجابتنا موضوعية ، ينبغى أن نتأمل فكر جمال عبد الناصر عند قيام الثورة ، والتطورات التى طرأت على هذا الفكر من واقع الممارسة والخبرة والتفاعل الحى مع الواقع .

وينبغى أولا ملاحظة الاختلاف بين وعى المؤرخين وفلاسفة التاريخ ، ووعى الزعماء الذين أسهموا بدور رئيسى فى مسيرة التغييرات التاريخية . أى بين دائرة المؤرخين ، ودائرة من يقودون الأحداث التاريخية الكبرى .

الدائرة الأولى تتشكل من علماء وفلاسفة ، ينحصر دورهم فى التأريخ والتحليل واستخلاص الدلالات .

بينما لايملك أفراد الدائرة الثانية ، نفس مقومات التخصص لأفراد الدائرة الأولى ، لكنهم يملكون خاصية صنع أحداث التاريخ ، إن جاز هذا التعبير . ووعى جمال عبد الناصر بالتاريخ ينتمى الى الدائرة الثانية - أى الزعماء الذين يملكون الوعى المتطور بمتغيرات عصرهم ، والقدرة على المساهمة فى قيادة عملية التغيير .

وأول وثيقة تحمل فكر عبد الناصر . كان كتاب « فلسفة الثورة » من خلاله سنحاول اكتشاف الى أى حد كان عبد الناصر يعى دوره التاريخى ، ويعى العلاقة العضوية بين الماضى الذى يشكل أسس المقومات الثقافية للأمة . والحاضر الذى يعيش فيه . والمستقبل الذى يعمل من أجله .

يقول جمال عبد الناصر فى فلسفة الثورة .. **ماهو دورنا فى هذا العالم المضطرب وأين المكان الذى يجب أن نقوم فيه بهذا الدور ؟**

الى أن يقول .. إن القدر لايهزل ، ليست هناك أحداث من صنع الصدفة ، ولاوجود يصنعه الهباء . ولن نستطيع أن ننظر الى خريطة العالم نظرة بلهاء . لاندرك بها مكاننا على هذه الخريطة ودورنا بحكم المكان . أيمكن أن نتجاهل أن هناك دائرة عربية تحيط بنا ، وأن هذه الدائرة منا ، ونحن منها ، امتزج تاريخنا ، وارتبطت مصالحنا بمصالحها ، حقيقة وفعلا ، لامجرد كلام .. ومامن شك فى أن الدائرة العربية هى أهم هذه الدوائر وأوثقها ارتباطا بنا . لقد امتزجت معنا بالتاريخ وعانينا نفس المحن ، وعشنا نفس الأزمات .. أيمكن أن نتجاهل أن هناك قارة إفريقية شاء القدر أن نكون فيها ، وشاء أيضا أن يكون فيها اليوم صراع مروع حول مستقبلها وهو صراع سوف تكون إثارة لنا أو علينا ، أردنا أو لم نرد ؟ .

ثم يقول عبد الناصر: « **إن ظروف التاريخ مليئة بالأبطال الذين صنعوا لأنفسهم أدوار بطولة مجيدة قاموا بها فى ظروف حاسمة على مسرحه . وأن ظروف التاريخ أيضا مليئة بأدوار البطولة المجيدة التى لم تجد بعد الأبطال الذين يقومون بها على مسرحه ، ولست أدرى لماذا يخيل الى دائما . أن فى هذه المنطقة التى نعيش فيها ، دورا هائما على وجهه . يبحث عن البطل الذى يقوم به ، ثم لست أدرى لماذا يخيل الى ، أن هذا الدور الذى أرهقه التجوال فى المنطقة الواسعة الممتدة فى كل مكان من حولنا قد استقر به المطاف متعبا منهوك القوى على حدود بلادنا ، يشير الينا أن نتحرك ، وأن ننهض بالدور ، ونرتدى ملابسه ، فإن أحدا غيرنا لايستطيع القيام به .**

وأبادر هنا فأقول إن الدور ليس دور زعامة ، إنما هو دور تفاعل وتجارب مع كل هذه العوامل ، يكون من شأنه تفجير الطاقة الهائلة الكامنة فى كل اتجاه من الاتجاهات المحيطة بها . ويكون من شأنه تجربة لخلق قوة كبيرة فى هذه المنطقة ترفع من شأن نفسها ، وتقوم بدرو ايجابى فى بناء مستقبل البشر » .

● ● ●

ومن هذه الفقرات الهامة ، نستطيع استخلاص عدد من الحقائق الهامة .

أولا : ان جمال عبد الناصر منذ الأيام الأولى للثورة ، كان يعى العلاقة الوثيقة بين مصر والعالم العربى ، ويعى أيضا امتزاج وارتباط التاريخ والمصالح والأهداف . أى أنه كان فى أعماقه قوميا عربيا . لم يتأثر بالتيارات الثقافية التى سادت الساحة المصرية زمنا طويلا ، وعبر عنها فريق من كبار الأدباء المصريين فى صورة تأكيد بأن مصر قومية منفصلة ، تمتد جذورها الى الفراعنة ، وأن هذه القومية لها ثقافتها الخاصة ، ذات الصلة الوثيقة بدول البحر الأبيض المتوسط .

أى أنه لم يتمثل غذاء جيله الذى نشأ فى ظل مثل عليا فى الأدب عبر عنها توفيق الحكيم فى .. عودة الروح ، التى حاولت تأصيل القومية المصرية فى جذورها الفرعونية رغم اعجاب عبد الناصر بها وحديثه الدائم عنها . وكتاب طه حسين ، فى الثقافة .. ومايجسده من رغبة فى تأصيل فكره أن ثقافتنا هى ثقافة شعوب البحر المتوسط ، وليست ثقافة أمة عربية تتحد فى اللغة والتكوين النفسى ، والثقافة المشتركة . وسعد زغلول القائل كلمته المشهورة عند سؤاله عن رأيه فى الوحدة العربية بأنها : **صفر زائد صفر يساوى صفر .**

هذا المنطق الفكرى والثقافى والسياسى لخيرة كتاب ومفكرى وسياسى مصر فى احدى مراحل حياتهم ، كان ينبع من ظروف خاصة مؤقتة . كما أنه لم يكن الاتجاه الوحيد ، بل واكبته وتصارعت معه اتجاهات أخرى ، عبرت عن رفضها لمفهوم القومية المصرية .. الفرعونية .. وحاولت تأصيل مفهوم الوحدة العربية والاسلامية ، وإن لم تصل هذه الاتجاهات الى تحديد الأسس القومية التى ينبغى أن تنطلق منها الوحدة العربية .

لذلك فإن وعى جمال عبد الناصر منذ الأيام الأولى للثورة ، بامتزاج التاريخ العربى ، والمصالح العربية ، يعبر عن إرهاصات الفكر القومى العربى ، الذى تطور بعد ذلك ، من خلال معارك الثورة والجماهير العربية وطموح هذه الجماهير للوحدة العربية .

ثانيا : ونستخلص أيضا الوعى المبكر بأهمية القارة الأفريقية ، وإرتباط مصر بها ، والوعى بما يدور فيها من صراع حول مستقبلها ، وادراكه لآثار هذا الصراع بالنصر أو الهزيمة ، على مصر .

ومثل هذا الوعى المبكر بنضال القارة الأفريقية وأثره على مصر ، يعبر عن بداية ادراك العلاقة العضوية بين الشعوب المناضلة من أجل التحرر ووحدة مصيرها .

ثالثا : حديث عبد الناصر البالغ الأهمية عن اكتمال الظروف الاجتماعية والوطنية فى المنطقة العربية ، والاسلامية ، والأفريقية ، لتفجير طاقاتها الهائلة ، والبحث عن زعيم أو بطل يتولى مهمة تفجير هذه الطاقات . وأن هذا الدور ، أو الزعيم يطرق أبواب مصر بالذات .

ثم يؤكد عبد الناصر أن هذا الدور ليس دور زعامة مجردة ، بل هو دور تفاعل وتجاوب مع كل العوامل ، وخلق قوة كبيرة تفجر الطاقات وتبنى المستقبل .

فهل يمكن أن يشك أحد بأن جمال عبد الناصر ، ومنذ بداية الثورة المصرية ، كان لديه الوعى باتجاهات التاريخ ، والوعى بوجود ضرورة **أو حتمية تاريخية للانتقال بالشعوب العربية والاسلامية والأفريقية الى عصر جديد ، وأن هذه الضرورة تبحث عمن يعبر عنها ويصل بها الى أهدافها النهائية . أى تبحث عن زعيم يتفاعل ويتجاوب مع كل عناصر هذه الضرورة ؟**

● ● ●

وبعد « فلسفة الثورة » ومن خلال ممارسة عبد الناصر وتعامله مع الظروف والتحديات تطورت أفكاره تطورا مستمرا فى شتى الميادين .

وكان للتجربة والممارسة الفضل الأول فى هذه العملية ، التى أطلق عليها بعد ذلك اسم

«التجريبية» ولعل الفقرات التالية من الميثاق تلقى الأضواء على العلاقة العضوية بين الفكر والتطبيق ، والأثر العظيم لنضال الشعب فى هذه العملية .

يقول الميثاق :«**إن هذا الشعب المعلم ، راح أولا يطور المبادىء الستة ويحركها بالتجربة والممارسة ، وبالتفاعل الحى مع التاريخ القومى ، تأثراً به وتأثيرا فيه ، نحو برنامج تفصيلى ، يفتح طريق الثورة الى أهدافها اللامتناهية » .**

ثم أن هذا الشعب المعلم ، راح ثانيا يلقن طلائعه الثورية أسرار آماله الكبرى ويربطها دائما بهذه الآمال .. ويوسع دائرتها ، بأن يمنحها كل يوم عناصر جديدة قادرة على المشاركة فى صنع مستقبله .

والتفاعل الحى الذى تحدث عنه جمال عبد الناصر فى الميثاق ، التفاعل مع التاريخ القومى « **تأثراً به وتأثيرا فيه » وهو أحد المفاتيح الهامة لكل باحث جاد يريد الوصول الى حقيقة شخصية جمال عبد الناصر .**

إذ أن هذا التفاعل أثرى الفكر الناصرى ، ودفعه خطوه من الحديث المجرد العام عن « العرب » ، أو الشعوب العربية ، أو الأسرة الواحدة ، الى اكتمال مفهوم الأمة العربية ، والشعب العربى .

فالفكر الناصرى ، هو بناء تدريجى ، لاينفصل عن الممارسة ، والتفاعل مع آمال الشعوب العربية . **لم يكن جمال عبد الناصر من المنظرين الايديولوجيين الذين يقدمون منذ بداية ظهورهم على مسرح السياسة ، أفكاراً كاملة ، وبرامج محددة تحديداً قاطعا غير قابل للتطور . ولم يكن أيضا ممن يهتمون بنشر مجموعة من المفاهيم والتصورات الكاملة . بل كان دائما المعبر عن طموحات الشعب ، منتقلا من أفكار عامة غير محددة عن الديمقراطية ، الالتحام بالشعوب العربية ، والاشتراكية التعاونية ، الى بناء التصور القومى للوحدة العربية ، والاختيار المجرد لشكل الديمقراطية التى كان يراها متفقة مع الظروف الاجتماعية العامة ، والتحديد الحاسم للاشتراكية باعتبارها حتمية لجميع شعوب العالم تنهض على أسس واضحة من الملكية العامة لوسائل الانتاج الاساسية ، والسماح لرأس المال الوطنى بحرية العمل بلا استغلال أو احتكار ، وتوزيع الأرض على الفلاحين ، ومشاركة العاملين فى ادارة المشاريع الانتاجية ، وحقهم فى الحصول على نسبة من أرباح هذه المشاريع سنويا .**

وفى كل مرحلة من مراحل نمو الوعى ، وتطور الفكر ، كانت المعايشة الواقعية لملامح كل مرحلة ، تعبر عن صفة أخرى من صفات شخصية عبد الناصر : عدم الفصل بين **الفكر والتطبيق** . الايمان بوحدة التاريخ والمصالح العربية واكبه التطبيق المباشر لهذا الايمان . فمع ظهور كتاب فلسفة الثورة عام ١٩٥٣ تم **افتتاح اذاعة « صوت العرب»** وتوقيع اتفاقية السودان التى تنص على حق تقرير المصير للشعب السودانى ، وخوض المعركة ضد الأحلاف الاستعمارية ، ومساندة الثورة الجزائرية ، وتوقيع إتفاق ثلاثى بين مصر وسوريا والسعودية فى أكتوبر ١٩٥٣ ، انضمت اليه اليمن بعد ذلك ، وتألفت أول قيادة عسكرية عربية موحدة .

وظل الخط القومى يتصاعد فى فكر وممارسة عبد الناصر ، حتى اشتعلت الأمة العربية بثورات تحررية فى جميع البلاد الخاضعة للاستعمار ، وتصاعد المد التحريرى والشعور القومى بضرورة الوحدة العربية .

لكن هذا المد الثورى الذى إجتاح الأمة العربية ، لم ينطلق لمجرد وجود الوعى بحركة التاريخ وحتمياته ، بل لأن هناك سبباً جوهرياً جعل من الممكن تحويل الوعى بحركة التاريخ الى قوة دفع جبارة فى تحقيق نزوعات هذا التاريخ ، وطموحات الشعوب العربية .

هنا نصل الى خاصية فريدة فى شخصية جمال عبد الناصر ، وهى تجاوب الجماهير معه . هذا التجاوب الذى عبرت عنه المواقف الجماهيرية فى لحظات انتصاراته وهزائمه ، بصورة أذهلت أعداء عبد الناصر ، وأشاعت الحيرة والارتباك فى محاولاتهم تفسير هذه العلاقة الغريبة بين القائد والجماهير .

فكيف نبعت وتطورت هذه العلاقة الفريدة بين عبد الناصر والجماهير ؟

يقول جون . س . كامبل: «**ليس هناك أدنى شك فى قدرة عبد الناصر على الاستحواذ على عقول الجماهير العربية وقلوبها من العمال والفلاحين والطبقة الوسطى ، والمثقفين وأنصاف المثقفين والعامة . أما نجاحه فيرجع الى أن معاركه ، كانت تعبيراً عن الرغبات الوجدانية العميقة للعرب ، والتى تتمثل فى تأكيد إعتزازهم بأنفسهم ، وشعورهم بالوحدة ، وحقهم فى المساواة وفى السيادة وفى الإنتقام لأنفسهم ممن أهانوهم (أى الاستعمار والصهيونية وإسرائيل) ولاسترداد الأرض السليبة . وكان التأثير الكلى لذلك هو خلق موجة قوية من الرأى العام العربى ، الذى يقف خلف زعيم واحد لم يعرف**

العرب له مثيلاً منذ أيام صلاح الدين .

وهناك من حاول تفسير إلتفاف الجماهير حول عبد الناصر على أساس نظرية الزعيم « الكاريزمى » والكاريزما Charisma تعنى فى اليونانية هبة من الله ، تمكن صاحبها من إمتلاك قوة خاصة ، تصل الى حد الإيمان بأنه يصنع المعجزات .

وجذور هذه النظرية بدأت من « ماكس فيبر » الذى اعتقد أن الزعيم « الكاريزمى » يستطيع أن يبعث فى الجماهير المؤمنة به ، حماساً يتجاوز السياسة الى عقيدة لا تتزعزع بقواه الخارقة .

أما « وولتر لاكير » فرغم حقده الأسود على جمال عبد الناصر ، فإنه يعجز عن تفسير شعبية ، وإلتفاف الجماهير حوله ، وإصرارها على التمسك بقيادته . هذا التمسك الذى لم يعرف له العالم مثيلاً فى يومى ٩ ، ١٠ يونيه عام ١٩٦٧ . ويضطر « لاكير » أخيراً الى القول « بأن عبد الناصر هو الزعيم الكاريزمى الوحيد الذى لم تتزعزع مكانته بالهزيمة » .

وكتب « جان لاكوتير » يصف جنازة عبد الناصر » « إن هذه الجموع الغفيرة فى تداخلها الهائل نحو الجثمان ، لم تكن فقط تشارك فى تشييع الجثمان الى مثواه الأخير .. لكنها كانت فى الحقيقة تسعى فى **تدفقها المتلاطم بجمال عبد الناصر الذى كانت صورته هى التجسيد المطلق لكينونتها ذاتها » .**

وعند هذه النقطة بالتحديد ، تبرز إحدى الحقائق المعبرة عن العلاقة بين جمال عبد الناصر والجماهير . **أى تجسيده لكينونتها ذاتها .** هذا التجسيد الذى تحقق من خلال تعبيره عن طموحاتها ، وآمالها ، وجذور تاريخها وأحلامها فى المستقبل .

لكن ذلك لم يظهر منذ اللحظة الأولى . بل نشأ وتطور من خلال مواجهة عبد الناصر لتحديات شرسة معقدة ، أكدت للجماهير أنه الزعيم التاريخى الذى بحثت عنه طويلاً .

وبداية هذه العلاقة كانت فى عام ١٩٥٤ . يقول محمد حسنين هيكل فى كتابه « عبد الناصر والعالم » انه من الغريب أن الرجل الذى أصبح موضع حب كل انسان ، بدا موضع سوء فهم من الناس . وكان الموضوع الذى يتردد فى خطبه فى ذلك الحين « لن استجدى تصفيقاً .. ولن استجدى هتافاً » .. فكان فى خطبه يحرج الجميع » .

ويعتقد هيكل أن الصورة الجماهيرية لعبد الناصر ، بدأت بحادثة محددة ، هى حادثة

المنشية عام ١٩٥٤ .. حين وجهت إليه ست رصاصات وهو يخطب فى الاسكندرية،ذلك لأنها جسدت احدى الصفات الرئيسية للصورة الجماهيرية للزعيم ، **وهى القوة والشجاعة** .

فالذى حدث فى المنشية ، أن عبد الناصر لم يهتز له روع عند اطلاق الرصاص حوله ، بل ظل واقفاً فى مكانه يتحدى القاتل ، بينما اختبأ بعض زملائه من رجال الثورة تحت المنصة ، تحدث الى الجماهير بصوت قوى قائلاً : فليبق كل منكم فى مكانه .. إننى حى لم أمت ، ولو مت ،فإن كل واحد منكم هو جمال عبد الناصر .. ولن تسقط الراية » .

ومن حادث المنشية ، الى باندونج ، ثم تأمين قناة السويس ، الى جانب عشرات الإنجازات التى حققها لمصر ، والمواقف الصلبة الواعية من قضايا التحرر العربى وتأكيد مفهوم وحدة المصير العربى ، اكتسب عبد الناصر شعبيته الجارفة ، التى حيرت الكثير من المؤرخين والمفكرين فى حياته وبعد موته .

وكان من الطبيعى أن تدرك الشعوب العربية الأثر الكبير لنضال عبد الناصر وتفاعله مع أمانيها ، فتتفاعل هى أيضاً معه .. لذلك فعندما أعلن جمال عبد الناصر قرار تأميم قناة السويس فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ معلناً أنها (قناة العرب) . وبدأ العدوان الثلاثى الذى شنته إنجلترا وفرنسا وإسرائيل فى ٢٩ أكتوبر من نفس العام ، تعلقت القلوب بموقفه الذى حدده من منبر الأزهر عندما قال « **سنقاتل . سنقاتل** » وقالت إذاعتا عمان ودمشق « **هنا القاهرة** » .. **وحطم الشعب السورى أنابيب النفط البريطانية ونسفت بعض الأنابيب** أيضاً فى الأردن ، والسعودية ، وخرجت المظاهرات فى معظم البلاد العربية ، تؤكد مساندتها لشعب مصر وللقائد جمال عبد الناصر .

والى جانب المواقف العظيمة التى عبرت عن تفاعل عبد الناصر مع الجماهير وتجاوبه مع أمانيها التاريخية ، فإن صفات أخرى فى شخصيته ، أكدت هذه العلاقة التى أذهلت الأعداء .

من بين هذه الصفات ، الاستقامة ، طهارة اليد ، والخلق الحميد . وفى ذلك يقول المفكر الفرنسى مكسيم رودنسون فى كتابه « إسرائيل والعرب » إن الإزعاج الحقيقى الذى يسببه عبد الناصر لإسرائيل ، هو أنه ليست له رزائل . وهذا ما يجعله معصوماً لا يمكن شراؤه ولا استمالته فهم يقولون ، أى المخابرات الإسرائيلية إننا نكره شجاعته .. لكننا لا نملك أن نفعل معه شيئاً . إنه نزيه الى درجة مذهلة .

ويضيف مكسيم رودنسون « إن الاخلاص المتأصل فى عبد الناصر ، هو الذى يجعل منه رمزاً .. وللكثيرين مثلاً يحتذى ».

ومن الصفات الأخرى ، البساطة فى حياته .. وفى هذا يصف الكاتب الأمريكى « روبرت سان جون » فى كتابه « الرئيس » **غرفة الاستقبال بمنزل عبد الناصر بقوله إن الغرفة بها طاقم من الأثاث ، يتكون من أريكة وستة كراسى مغطاة بقماش مطرز بالورد ، وثلاث مناضد صغيرة »** .

ثم يقول « انه كرئيس دولة من حقه أن يقيم فى أحد القصور .. أو أن ينقل إليه ما يشاء من الأثاث الى منزله الذى تملكه الحكومة ، لكن عبد الناصر دفع ثمن هذا الطاقم من جيبه الخاص .

مما سبق يتضح أن صفات وقدرات عبد الناصر ، لم تقف عند حدود الوعى بحركة التاريخ ، والوعى بضرورة الثورة المصرية لتكون احدى الحلقات الرئيسية للثورة القومية العربية ، إنما يتصف بصفات شخصية جعلته وبحق النموذج العظيم لبطل أمته .. فضلاً عن امتلاكه لذلك الشىء الذى يصعب اكتسابه ، وهو وصول كلماته الى عقول ووجدان الجماهير بسرعة ، وتجاوبها معه ، واعترافه الدائم بفضل هذه الجماهير على تطوير أفكاره ، بما يتفق مع إحتياجاتها .

فإذا أضفنا الى ذلك ، قدراته التنظيمية ، وإحساسه العميق بمشكلات عصره وآمال أمته ، وأحلام الشعوب فى الحرية ، تكتمل لدينا صورة الزعيم النابع من الشعب بدون اضافة « كاريسمية » أو غيرها إليه .

وعندما يتم الالتقاء بين ضرورات التاريخ فى اجتياز مرحلة صعبة مع بروز القائد على القيادة فى هذه المرحلة ، تتجسد بوضوح العلاقة بين البطل وحركة التاريخ .

إن التاريخ كما قلنا تحكمه ظروف وقوانين موضوعية ، لا يصنعها البطل التاريخى . لكن البطل التاريخى ، يجىء أحياناً فى الوقت المناسب ، ليدرك إتجاهات عصره وآمال شعبه ، ويتفاعل معها ، ويحقق أهدافها .

● ● ●

ماذا يقدم هذا النموذج الفريد للمؤرخين وفلاسفة التاريخ وعلماء اجتماع الثورات من دروس ؟

فى اعتقادى أن جمال عبد الناصر يقدم اضافات ثمينة لتطوير مفهوم البطل فى التاريخ . انه يعبر عن حقيقة بالغة الأهمية ، وهى أن التاريخ ليس مجموعة أحداث أو

حركـة عشوائيـة ، أو دورات مغلقـة من نشوء الحضـارات ومـوتهـا . وليس التـاريـخ قـوة غامضة مستقلة عن إرادة البشر . تتحرك نحو غايات مرسومة سلفاً .

وعندمـا نقول إن تـاريخ الأمم يحمل فى طيـاتـه نزوعـات ، تسعى الى التحقيق،فـإن ذلك لايعنى اطلاقاً استبدال فاعلية الجماهير الصانعة الحقيقية للتاريخ ، بهـذه النزوعـات أو الأهداف الكامنة فى أعماق تاريخ الأمم ، ولا يتعـارض مع دور القيـادة الملهمـة وأثرهـا فى إطلاق فاعلية الجماهير . بل نستهدف فقط الإشارة الى أن معرفة هذه الاتجاهات ، تسـاعـد أبطال التغيير التاريخى على تحقيق الأهداف ، بما يتفق مع اتجاهات التاريخ .

وتلك أولى النقـاط التى تشير الى عبقريـة جمـال عبـد النـاصر . وإذا كان التـاريخ لا يتحرك بعيـداً عن مبررات التقـدم بـالشعوب ، والانتقـال بهـا من الأدنى الى الأعلى ، فـإن ذلك لا يتناقض مع حدوث النكسات ، بل وظهور خط هابط فى تاريخ الأمم .

بيـد أن انكسـار ، أو انحـدار بعض الأمم ، وتراجع مسيرة التـاريخ حقبـة من الزمن لاينفى الإتجاه الرئيسى للتاريخ ، أى الصعود الـدائم بـالانسـان من الأدنى الى الأعلى . بل ينبغى اعتبـار هـذه النكسـات ظـواهر إستثنـائيــة مـؤقتــة ، حتى لـو استغرقت عشرات السنين ، ذلك أن الزمن التاريخى لايقاس بالمعـايير المـألوفـة ، إن بضع عشرات من السنين أو حتى عدة قرون ، قد تكون بالنسبة للانسان زمنـا طويلا ولكن هـذه الفترة فى تـاريخ الأمم ، مجرد مرحلة خاطفة ، ظهرت وانتهت ، أو لابد أن تنتهى ، لتعقبها مرحلة جديدة للوصول فى النهاية الى المجرى الرئيسى للتاريخ المندفع الى الأمام .

فهناك حركة جدلية بين الانسان والتاريخ ، التاريخ يتحرك بالانسان ، ويحركـه فى نفس الوقت ، فلا تاريخ بدون القوة العظيمة المتجددة للبشرية ولاتـاريخ للانسـان ، لو لم ينفعل به ويسجله على الحجارة أو الورق . وعندما يكتب الانسان تاريخه القديم والمتوسط والحـديث ، يستخلص حقيقـة الصعـود الـدائم من الهمجيـة الى المـدنيـة ومن العبـوديـة الى الحرية .

وجمال عبد الناصر ، ظـاهرة نـادرة فريـدة ، تجمع بين الوعى والقوة ، والتفـاعل مع الجمـاهير ، والانحيـاز الحـاسم للطبقـات التى عـانت طويـلاً من القهر والحرمـان ، والرؤيـة العميقـة لـلأهـداف البعيـدة والقصيرة ، فضـلاً عن صفـاتـه الأخرى المتصلـة بـالطهـارة ، والبساطة ، والاستقامة ، والرفض الحاسم للفساد والمفسدين .

ومن أعمـاق هـذه الصفـات . ترك بصماتـه العميقـة فوق صفحـات تـاريخ أمتـه ، بل وتاريخ العالم .

● ● ●

ماهى المنجزات التى حققها جمال عبد الناصر ، ومازالت صامدة ، تتحدى خصومه من الأعداء الدوليين الكبار ، والأعداء المحليين الصغار ، والافاقين ممن دبجوا قصائد المديح فى حياته ، ثم حاولوا النيل من اسمه بعد مماته ؟

لن أتحدث عن منجزات عبد الناصر فى مصر ، وعالمنا العربى ، وأفريقيا وحركة عدم الإنحياز . إذ أن القائمة طويلة .. سجلتها عشرات الكتب والدراسات .

لكننى أكتفى فقط بحقيقة هامة ، وهى أن الآثار العميقة التى تركها عبد الناصر لمصر وشعبها ، أقوى من الكتب والدراسات والكلمات . **إنها تعيش حمة مشرقة مع إنسياب المياه فى حقول الفلاحين المصريين أثناء السنوات الخمس الماضية . بفضل السد العالى الذى يحمل أحد « الأهرامات » العملاقة لعصر عبد الناصر .**

لولا هذا السد ، لكان من الحتم أن تصل المجاعة المنتشرة فى عدد من دول أفريقيا الى مصر ، نتيجة للجفاف . ولولا السد العالى لكان كل أبناء مصر البالغ عددهم ٤٨ مليوناً ، قد عانوا مرارة الحرمان من تدفق مياه النيل إليهم . إذ أن مصر تأخذ من بحيرة السد ، بحيرة ناصر إحتياجاتها من المياه نتيجة لانخفاض ما يصل مصر من مياه النيل خلال السنوات الماضية .

والفلاحون فى مصر ، لايشعرون بمنجزات عبد الناصر الحية بفضل السد العالى وحده .. بل أن كل فلاح تحرر من عبودية الاقطاع ، وامتلك قطعة من الأرض يزرعها ، وكل من يستأجر أرضاً من أحد الملاك ، هؤلاء جميعا يشعرون كل يوم بآثار عبد الناصر الحية .

وعمال مصر ، لايحتفلون بذكرى ميلاد أو وفاة عبد الناصر كل سنة فقط ، بل إنهم يحسون بوجوده كل يوم بفضل القوانين التى أصدرها ، وقضت على الفصل التعسفى ، والبطالة ، وأعطت للعمال الحق فى المشاركة فى إدارة المشروعات ، والحصول على نسبة من أرباحها .

وطلاب المدارس والجامعات ، يعيشون منجزات عبد الناصر المتمثلة فى مجانية التعليم ، وفتح أبواب الجامعات أمام أبناء الفلاحين والعمال والموظفين ، وغيرهم من الطبقات التى كان من المستحيل على أبنائها فى الماضى ، الوصول الى الجامعة ، لاستحالة توفير نفقات التعليم فيها .

والمثقفون الوطنيون ، يعيشون الآثار العظيمة لعصر عبد الناصر ، فى صورة عشرات المعاهد والاكاديميات والمؤسسات الفنية والثقافية .

بل إن التجار والرأسماليين الوطنيين يشعرون أيضا بأمجاد عبد الناصر ، كلما شعروا بضغط كبار التجار وعملاء الشركات الأجنبية ، وتحطيم الصناعات الوطنية أمام الباب الذى انفتح على مصراعيه للسلع الأجنبية الترفيهية بعد موت عبد الناصر .

وفيا يتعلق بعالمنا العربي ، فما أظن أن الأمر يحتـاج الى سرد لمنجزات عبـد النـاصر . **ويكفي أنـه جعل مفهوم القوميـة العربيـة يكتسب لحماً ودماً ، ويحـولـه من فكرة هـائمـة ، الى حقيقـة تعيش الآن في عقـول ووجـدان الأمـة العربيـة من المحيط إلى الخليج .**

وعبد الناصر مازال حياً في وجدان الشعوب العربية ، من خلال معـاركـه المنتصرة ضد التـدخل الأجنبي ، والأحلاف العسكريـة ، وما أظن أن هنـاك حاكما واحدا ، يجرؤ الآن على الدعوة للاحلاف العسكرية ، أو الاشتراك الصريح فيها ، بعد أن كادت هذه الأحلاف تسيطر على أمتنا العربية ، قبل معارك عبد النـاصر ضدها .

وإذا كانت الوحدة العربيـة التى عمل عبـد النـاصر من أجلهـا الكثير لم تتحقق ، فـإن إنتشار هذه الفكرة وتحولها الى هدف مقـدس للشعوب العربيـة ، يعتبر أيضـاً من منجزاتـه الخالدة .

● ● ●

وقارتنا الافريقيـة تـذكر عبـد النـاصر ، **مع كل اجتماع تعقـده منظمـة الوحـدة الافريقية ، ومع كل إحتفال باستقلال معظم بلادهـا .. إذ أن هـذه المنظمـة ، وانتصـار حركات التحرر الـوطنى في الغـالبيـة العظمى من بلـدانهـا ، إنجـازان عظيمان ساهم عبد الناصر بدور أساسى فى تحقيقها .**

وحركـة عـدم الانحيـاز التى تضم الآن أكثر من مـائـة دولـة من دول العـالم الثـالث ، **يستحيل أن تنسى أحد مؤسسيها العظام ، جمال عبد الناصر .**

البذرة الأولى التى أنبتت بعد ذلك هذه **الحركة بدأت فى باندونج** عام ١٩٥٥ وكان عبد الناصر أحد القادة الكبار فى هذا المؤتمر التاريخى .

واللجنة التى قامت بالتحضير لأول مؤتمر لدول عدم الانحيـاز اجتمعت فى القاهرة ، وبإشراف جمال عبد الناصر . باعتباره أحد الأربعـة الكبـار الـذين أسهموا فى انعقـاد أول مـؤتمر للـدول غير المنحـازة ، وهم تيتـو ونهرو ، وسـوكارنـو ، ومعهم عبـد الناصر .

وبالإضافة الى ذلك كلـه ، فـإن منظمـة التضـامن الآسيوى الافريقى ، التى مـازالت **تواصل أعمالها ، يستحيل أن تنسى فضل أحد مؤسسيها العظام ، جمال عبد الناصر .**

فهل تستطيع الخناجر المسمومة بعد ذلك كله ، أن تصل الى هذه المنجزات الحية المتألقة ، لتقتلها ، أو حتى تصيبها بخدوش ؟

إن مزيفى التاريخ ، وزمرة الأفاقين ، ومن جردتهم الثورة من سلطانهم الاستغلالى القديم للجماهير ، وعملاء شركات الانفتاح الحديثة ، والمرتزقة من الكتاب والصحفيين ومن خلفهم القوى الاستعمارية والصهيونية ، التى مازالت تحارب اسم عبد الناصر كرمز لعصر أذاقها الهوان ، وتدفع بسخاء لتمجيد اسم أنور السادات ، كرمز لعصر الارتداد عن طريق التطور الاشتراكى الى الرأسمالية الطفيلية ، ومن الاستقلال الى التبعية ، ومن السد العالى ومصانع الحديد والصلب والالومنيوم وقلعة الصناعات الحربية فى حلوان ، الى « ومبى » « وكنتاكى » و « السفن أب » « ولصوص البنوك والانفتاح وقراصنة السوق الحرة ببورسعيد » . إن هؤلاء جميعا أعجز من أن ينالوا من المنجزات الحية لجمال عبد الناصر ، وأقصى مايمكن أن يفعلوه . هو التأثير المؤقت فى وعى قطاعات صغيرة من الشعب .. لكنه لن يلبث أن يزول ، لأن الحقائق أقوى وأعظم من التزييف والأكاذيب .

● ● ●

رؤية موضوعية لأخطاء التجربة الناصرية

٢

تناولت فيما سبق ، أبرز الخصائص التى اتسمت بها شخصية جمال عبد الناصر ، والمنجزات التى تحققت بفضل قيادته لثورة ٢٣ يوليو .

وأوضحت ، أن عبد الناصر ، لم يكن مجرد ظاهرة فريدة فى التاريخ المصرى والعربى ، بل كان أيضاً أبرز زعماء التحرر الوطنى فى عصره ، وأشدهم صلابة فى العداء للاستعمار ، وتحقيق الاستقلال الوطنى لمصر والأمة العربية ، والقارة الافريقية ، إلى جانب دوره العظيم فى تأسيس وقيادة حركة عدم الانحياز ، إلى جانب نهرو وتيتو وسوكارنو .

لكن هذا الوجه المشرق للتجربة الناصرية ، صاحبة وجه آخر ، عبر عن سلبيات خطيرة ، أدت فى نهاية المطاف إلى انهيار المشروع القومى الناصرى لتحرير ووحدة ونهضة

الأمة العربية ، بعد موت الزعيم فى الثامن والعشرين من سبتمبر ١٩٧٠ .

والواقع أن نقطة الضعف الأساسية فى هذه التجربة العملاقة ، تمثلت فى العجز عن حل مشكلة الديمقراطية ، والمشاركة الشعبية الحقيقية فى القرارات المصيرية والرقابة على تنفيذها . وتلك حقيقة لم تعد محل خلاف بين جميع القوى الوطنية والقومية فى وطننا العربى . فالنجاح الكبير فى تحقيق الأساس الاجتماعى والاقتصادى للديمقراطية لم يرافقه نفس النجاح فى تحقيق الديمقراطية السياسية .

والسؤال الذى فرض نفسه على جميع المؤرخين والمفكرين هو : **لماذا عجزت القيادة الناصرية ، عن تحقيق الشرط الجوهرى لنجاح واستمرار جميع الثورات الكبرى فى التاريخ ؟**

هناك إجابة تلتقى حولها آراء الغالبية العظمى ممن تناولوا بالتحليل هذه الظاهرة ـ وأقصد هنا المفكرين والمؤرخين الذين استرشدوا بمنهج موضوعى ، لا تشوبه روح الذاتية والعداء الدفين للثورة وقائدها ـ أجمع هؤلاء المفكرون على أن جذور هذا الخطأ ، نبعت من إنطلاق الثورة من داخل جهاز الدولة ، أى الجيش ، مما فرض عليها اعتبار هذا الجهاز هو مؤسستها التنظيمية . . واخضاع العمل السياسى لها .. وتغليب الأسلوب الإدارى فى كل ما يتصل بالنشاط الجماهيرى .. وهيمنة جهاز أمن الثورة وأمن الدولة على مجريات الأحداث خلال معظم مراحل هذه التجربة .

● ● ●

تلك هى بإيجاز خلاصة الجذور التى نبعت منها السلبيات الكبرى .. كما يعتقد غالبية المؤرخين والمفكرين .

ومع التسليم بصحة هذه الرؤية بشكل عام ، فإن هناك جوانب أساسية فى تاريخ ثورة ٢٣ يوليو ، لم يتعرض لها المعلقون وإن كانت تشكل أحد المفاتيح الجوهرية لفهم أسباب التناقض بين تعبير جمال عبد الناصر عن طموح وآمال الجماهير . وتجسيده للضرورة التاريخية فى تحويل الثورة المصرية الى ثورة عربية قومية شاملة ، تحقق للأمة وحدتها ونهضتها وتحررها الكامل ، وبين الاعتماد على أجهزة الدولة بصورة أساسية ، بدلاً من الاستناد الى الجماهير الشعبية المنظمة تنظيماً حقيقياً فعالاً ، بل وإبعاد هذه الجماهير عن المشاركة فى الخلافات والقرارات المصيرية .

فمن الصعب تفسير هذا التناقض ، أو تفسير القرارات المتعارضة التى صاحبت قيام

الثورة وتطورها ، بالاستناد فقط الى انطلاقها من الجيش ، ثم اعتمادها عليه ، واعتبار أجهزة الدولة هى الكفيلة بحماية الثورة وتحقيق أهدافها ، بدلاً من الاعتماد على الجماهير المنظمة ، ومشاركتها الفعالة فى اتخاذ القرار والاشراف على تنفيذه .

● ● ●

وفى اعتقادى أن أحد الجوانب الهامة التى تفسر هذا التناقض ، تتمثل فيما يطلق عليه **إزدواج السلطة ، أو السلطة المزدوجة .**

ذلك أن الثورة اجتازت مراحل مختلفة ، لكل مرحلة سماتها الخاصة ، ولها أيضاً نفس طابع إزدواجية السلطة ، وإن اختلفت مظاهرها وحدتها .

ومن هذا الإزدواج ، يمكن فهم الخطأ الأساسى الذى وقع فيه عبد الناصر وهو عجزه عن تنظيم الجماهير داخل تحالف قوى فعال .. واعتماده على جاذبيته فى خلق علاقة مباشرة بينه وبين الجماهير .. إلى جانب اعتماده على جهاز الدولة فى وضع السياسات . أما التنظيمات التى ظهرت ، إبتداء من هيئة التحرير ، حتى الاتحاد الاشتراكى ، فكانت صورية هشة ، عاجزة عن القيام بأية مبادرة . وكانت علاقة عبد الناصر بها ، **ذات إتجاه واحد من القمة إلى القاعدة .. مما أدى إلى تصفية آخر هذه التنظيمات بسهولة غريبة فى بداية الانقضاض على الثورة .. بل واندفع العديد من قياداته فى المرحلة الجديدة ، وتولوا مناصب قيادية فى النظام النقيض لنظام جمال عبد الناصر .**

● ● ●

ونعود إلى قضية إزدواج السلطة - وأثرها فى خلق هذه الأوضاع ، المتناقضة مع جوهر الثورة ، وجوهر الزعامة الناصرية للجماهير .

والمرحلة الأولى من السلطة المزدوجة ، تتجسد فى الفترة من ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، إلى نهاية مارس عام ١٩٥٤ .

خلال هذه الفترة التى شهدت تحولات ثورية ووطنية جذرية ، مثل الإطاحة بالنظام الملكى ، وصدور قانون الاصلاح الزراعى ، وتنظيم المقاومة الفدائية ضد الاستعمار البريطانى فى مدن القناة ، واعلان الجمهورية ، وغير ذلك من الإجراءات ، برزت أيضاً **قرارات ومواقف متناقضة بالنسبة لقضية الديمقراطية .**

والطابع الرئيسى لإزدواج السلطة فى هذه المرحلة ، **يتمثل فى أن السلطة الرسمية كانت فى يد اللواء محمد نجيب ، ومعها التأييد الشعبى الجارف .**

بينما كانت السلطة الفعلية ، وخصوصاً فى الجيش فى يد تنظيم الضباط الأحرار بقيادة مجلس قيادة الثورة وعلى رأسه جمال عبد الناصر . ولست أريد الاسهاب فى تناول تفاصيل التناقضات التى برزت بين السلطتين .. ومحاولة كل طرف الاستحواذ على حق رسم سياسة الدولة وتحديد مواقفها .

ومع أن جمال عبد الناصر ورفاقه من أعضاء مجلس قيادة الثورة ، هم الذين اختاروا محمد نجيب ليكون « الواجهة » الرسمية للثورة ، بسبب رتبته الكبيرة ـ لواء ـ وشعبيته فى صفوف قطاعات من ضباط الجيش بعد انتخابات نادى الضباط المشهورة ، وهم الذين وجهوا أجهزة الاعلام لتركيز الأضواء عليه بين الجماهير ، كضرورة لتأمين الثورة ، ومواجهة الزعامات التقليدية فى الأحزاب المصرية القديمة ، فإن الشعبية التى اكتسبها محمد نجيب خلال هذ الفترة ، أسهمت فى ظهور « إزدواجية السلطة » .. ثم الصراع الضرورى الناتج عن هذا الإزدواج ، والذى انفجر فى أوائل عام ١٩٥٤ .. فى صورة قرار مفاجىء من مجلس قيادة الثورة ، بعزل محمد نجيب ، وتجريده من كافة سلطاته .

عندئذ برز الجانب الجماهيرى لمحمد نجيب .. الذى حاول إكساب هذا الصراع ، طبيعة ديمقراطية ، وتصويره للخلاف مع مجلس قيادة الثورة ، على أنه خلاف بين الدكتاتورية والديمقراطية .

وتحركت بسرعة الأحزاب السياسية القديمة ، إلى جانب الإخوان المسلمين ، والشيوعيين ، لمساندة محمد نجيب « الديمقراطى » .. بل وانتقل الصراع إلى داخل الجيش نفسه ، مما أرغم مجلس قيادة الثورة على إلغاء قراراته السابقة ، وعودة نجيب منتصراً ، واعلان عودة الجيش إلى ثكناته ، وتشكيل حكومة مؤقتة ، لوضع دستور جديد وإجراء انتخابات ديمقراطية .

وبدا على سطح الأحداث ، أن السلطة الرسمية الجماهيرية ، ممثلة فى محمد نجيب ، انتصرت . لكن ذلك كان أبعد ما يكون عن الواقع . إذ أن تنظيم الضباط الأحرار ، تحرك بسرعة ، وأعاد سيطرته على الموقف ، وتحديد إقامة محمد نجيب .. وبداية ظهور قائد الثورة ـ جمال عبد الناصر ، على مسرح الحياة السياسية والجماهيرية ـ باعتباره القائد الحقيقى للثورة ، وليس محمد نجيب .

ويلاحظ أن أنصار وخصوم التجربة الناصرية يتجاهلون هذا العنصر .. أى إزدواج السلطة ، وأثر ذلك على مجرى الأحداث بعد ذلك .

أنصار الثورة ، يرون أن جمال عبد الناصر ، كان القائد المهين على السلطة منذ اليوم الأول .. **وجميع الانجازات ترجع إليه وحده .**

وخصوم الثورة ، يقعون فى تناقض مع أنفسهم .. عندما يلعنون كل إجراء اتخذته الثورة منذ اليوم الأول ، وينسبون كل كبيرة وصغيرة لجمال عبد الناصر .. وفى نفس الوقت يرفعون محمد نجيب إلى ذروة الوطنية والديمقراطية ، ويبكون على الفترة الذهبية التى سيطر فيها على الحكم .. قبل عزله عام ١٩٥٤ .

● ● ●

ومن الصعب تجاهل هذه الفترة وتأثيرها على المراحل التى تلتها . فالجماهير بقيادة الأحزاب والجمعيات والتيارات السياسية المنظمة تنظيماً جيداً ، هى التى فرضت على مجلس قيادة الثورة إعادة محمد نجيب .. وتصفية القوى التى نظمت وأطلقت شرارة الثورة . وأجهزة أمن الثورة بإشراف تنظيم الضباط الأحرار هى التى أعادت السلطة إلى مجلس قيادة الثورة . **فهل ندهش بعد ذلك عندما ينتشر سلطان ونفوذ هذه الأجهزة ، ويشتد الاعتماد عليها ، كبديل للجماهير المنظمة القابلة للتضليل ، والإنحراف عن مصالحها الحقيقية ، كما اعتقد قادة الثورة ، ومعهم جمال عبد الناصر نفسه ؟**

ولكن هل كان جمال عبد الناصر ، مخطط الثورة ، وقائدها ، يحمل فكراً معادياً للديمقراطية ، فى مواجهة محمد نجيب « الديمقراطى » ؟

إن الإجابة على هذا السؤال . جاءت من جميع رفاق عبد الناصر تقريباً .. الذين اعترفوا فى مذكراتهم ، وكتبهم ، ومنهم أنور السادات ، أن موضوع الديمقراطية والدكتاتورية ، طرح على مجلس قيادة الثورة فى الأيام الأولى لانتصار الثورة .. فى اجتماع تاريخى لم يحضره خالد محيى الدين ويوسف صديق ، وهما من أنصار الإتجاه الديمقراطى الحاسم ، وكانت نتيجة التصويت هى : وقوف جمال عبد الناصر وحده إلى جانب الديمقراطية ، فى مواجهة جميع أعضاء المجلس . ومعهم محمد نجيب ، الذين « صوتوا » لصالح الدكتاتورية .

ويعترف نفس من عاصروا هذه الفترة ، أن جمال عبد الناصر احتج ، بل وقدم استقالته من المجلس .. ثم عاد إلى مكانه بعد ضغط زملائه .. والوعد بعدم إقامة حكم دكتاتورى .

● ● ●

وعندما نسترجع بعض القرارات المتصلة بقضية الديمقراطية ، وشكل الدولة خلال المرحلة (١٩٥٢ ـ ١٩٥٤) تتضح لنا معالم الصراع النابع من إزدواجية السلطة من ناحية ، ووجود إتجاهات معادية للديمقراطية من ناحية أخرى ، فضلاً عن غياب الوضوح الفكرى والخبرة السياسية ، بعد قيام الثورة مباشرة ، قامت بعزل الملك .. لكنها بدلاً من تتويج هذه الخطوة بالقضاء على الملكية ، اتخذ قراراً بتعيين طفل صغير « ملكاً » تحت مجلس وصاية !.. وأبقت على الدستور الملكى ، حتى أعلنت سقوطه فى ١٠ ديسمبر ١٩٥٢ ـ دون اعداد بديل لهذا الدستور . وفى ١٠ فبراير ١٩٥٣ . أصدرت أول اعلان دستورى .. لم يحدد أيضاً موقفاً من النظام الملكى .. بل بقيت مصر فى ظله **دولة ملكية حتى ١٨ يونيو ١٩٥٣ ، وهو تاريخ اعلان الجمهورية .**

ذلك كان على المستوى الدستورى ، أى نظام الحكم .. أما على مستوى الممارسة الشعبية ، فقد كان الاضطراب والتخبط أكثر وضوحاً .

فى البداية اعتبرت الثورة النظام الديمقراطى الذى كان قائماً قبلها ـ سليماً من حيث الجوهر .. وإن أفسدته « **فئة من المخادعين الذين عاشوا لتحقيق شهواتهم ومطامعهم** » كما قال عبد الناصر فى ١٦ سبتمبر ١٩٥٢ .

وبتأثير هذا المفهوم ، طلبت الثورة من الأحزاب القائمة ، تطهير نفسها . وعندما رأت أن عملية التطهير لم تتم كما يجب .. صدر قرار ١٦ يناير ١٩٥٣ ، بحل الأحزاب السياسية ، لم يتضمن حظر النشاط الحزبى ، فصدر بعد يومين مرسوم بحظر قيام الأحزاب مطلقاً .. لم تفرق بينها على أساس المواقف أو التاريخ أو الفساد ، بل « **بسبب الاتصال بدول أجنبية وتدبير ما من شأنه الرجوع بالبلاد إلى حالة الفساد السابق** » كما قيل فى تفسير هذا المرسوم .

وبعد خمسة أيام من هذا الحظر ، أعلن عن قيام « هيئة التحرير » لتكون الحزب المعبر عن الثورة .. وبديل للأحزاب المنحلة .

لكنها جاءت بلا ملامح .. يصعب تصنيفها .. لا هى حزب .. ولا جبهة .. ولا جمعية . بل هى كما قيل « **مصر كلها منظمة فى هيئة متعددة الجوانب والنشاط** » .

ولم يحاول المخططون لإنشاء هذه الهيئة **تفسير كيفية ضم « جميع المصريين » رغم أن الثورة ضربت من بداية انطلاقاتها « المصرية » الطبقة الاقطاعية « المصرية » وحاشية النظام الملكى ، والكثير من الفئات المرتبطة بالمصالح الاقطاعية والاستعمارية ، وكلهم من المصريين !!**

ومن الصعب الآن ، عرض جميع القرارات المتناقضة خلال هذه الفترة .

ومن الصعب أيضاً ، تفسير هذا التخبط ، بعيداً عن صراع السلطة . وهو الصراع الذى كان يجرى فى الخفاء .. بعيداً عن الجماهير .. رغم أنه يتصل بصميم مصالحها وأهدافها .

ومرة أخرى نطرح سؤالاً هاماً ، وهو : **هل كان استبعاد نجيب ، واستقرار السلطة فى أيدى مجلس قيادة الثورة ، والاعتراف بزعامة جمال عبد الناصر للثورة ، يعنى نهاية عصر السلطة المزدوجة وبداية انفراد عبد الناصر بالسلطة الكاملة ، أو المطلقة ، كما يحاول الأنصار والخصوم تصوير وضع ما بعد أزمة ١٩٥٤ ؟**

●●●

صراع السلطة بعد الاطاحة باللواء محمد نجيب

٣

طرحت فيما سبق سؤالاً هاما ، وهو : هل كان استبعاد نجيب ، واستقرار السلطة فى أيدى مجلس قيادة الثورة بزعامة جمال بعد الناصر ، يعنى نهاية السلطة المزدوجة ، وبداية انفراد عبد الناصر بالسلطة المطلقة ، كما يحاول أنصار وخصوم الثورة تصوير وضع مابعد أزمة مارس ؟

لنترك الأحداث التى أعقبت هذه الأزمة ، تجيب على هذا السؤال . وعلينا قبل ذلك ، تذكر حقيقة هامة أشرت إليها فى الفصل السابق ، وهى أن قدرة الأحزاب القديمة على تحريك قطاعات واسعة من الجماهير ضد مجلس قيادة الثورة ، والعودة « الظافرة » المؤقتة لنجيب نتيجة لذلك ، كان لها أبعد الآثار فى نظرة عبد الناصر

إلى الجماهير بصفة عامة ، والجماهير المنظمة فى أحزاب سياسية متعددة بصورة خاصة .

كما انعكس ذلك أيضا ، على تدعيم ثقته فى المؤسسة العسكرية ـ الجيش ـ باعتبارها القوة التى فجرت الثورة ، وحافظت على استمرارها فى مواجهة « جماهير » أزمة مارس التى أمكن تضليلها .

ونعود إلى قضية السلطة بعد أزمة مارس .. لنجيب على السؤال الذى طرحته .

لقد تميزت الفترة التى أعقبت أزمة مارس ، بتزايد شعبية جمال عبد الناصر . وخصوصاً بعد موقفه الشجاع أثناء محاولة اغتياله فى المنشية بالاسكندرية . ثم اشتراكه فى مؤتمر باندونج ، ومساندته للثورات التحريرية فى الوطن العربى ، وأفريقيا ، وصراعه ضد الأحلاف الاستعمارية ، وتأميم قناة السويس ، وتتويج ذلك كله بخروجه منتصراً من العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ ، فضلا عن انتصاره فى معركة انهاء الاحتلال البريطانى لمصر ، والغائه لجميع الاتفاقيات التى تربط مصر ببريطانيا .

ومع اتساع شعبية عبد الناصر ، بدأت مشكلة السلطة تبرز من جديد ، فالدستور الجديد كان ينص على إنتهاء فترة الانتقال عام ١٩٥٦ . **ينتهى معها تشكيل مجلس قيادة الثورة . مثلما انتهى من قبل تنظيم الضباط الأحرار ، وإن كان قد استبدل بتنظيمات هامشية شخصية ، تركزت أخيراً فى يد القائد العام للجيش ، عبد الحكيم عامر .**

وكان موقف أعضاء مجلس قيادة الثورة بعد انتهاء المرحلة الانتقالية ـ ٢٣ يوليو ١٩٥٦ ـ متباينا . صلاح سالم قبلت استقالته فى أغسطس عام ١٩٥٥ ، أما شقيقه جمال سالم ، فقد اتخذ موقفاً معارضاً لانفراد عبد الناصر المتزايد بالسلطة ، قبل حل المجلس .. بعد أن كان فى البداية من أشد المهاجمين لمحمد نجيب ، الأمر الذى دفع عبد الناصر إلى تعيينه نائباً لرئيس الوزراء فى نوفمبر ١٩٥٥ .

والواقع أن مجلس قيادة الثورة ، قد شهد صراعا من نوع جديد بعد الاطاحة بمحمد نجيب . لقد تجمع بداخله جمال سالم وعبد اللطيف البغدادى وحسن ابراهيم ، وانضم إليهم صلاح سالم قبل استقالته ، وقرروا ألا يشتركوا فى الحكم بعد انتهاء فترة الانتقال ، وأن يقدموا استقالة جماعية .

كانوا يستهدفون بمشروع استقالتهم الجماعية ، تنبيه الجماهير بانفراد عبد الناصر بالسلطة ، لكن هذه الخطة لم تنفذ لاستقالة صلاح سالم ، ولاعتقاد البغدادى أنه

قادر خلال وجوده رئيساً لمجلس الأمة ـ حسب ماتم اتفاقهم عليه قبل انتهاء فترة الانتقال ، على الحد من سلطة عبد الناصر ، عن طريق السيطرة على أعضاء مجلس الأمة .

وبعد حل مجلس قيادة الثورة ، برزت مشاكل الصراع داخل مجلس الأمة ، وداخل الاتحاد القومى الذى كان الامتداد العملى لهيئة التحرير .

لكن هذه الصراعات ، رغم شراستها ، وتعبيرها عن مقاومة وحدة السلطة تحت قيادة عبد الناصر ، لم يبرز منها الخطر .. بل برز **من المؤسسة العسكرية ، التى اعتمد عليها عبد الناصر اعتمادا كاملاً ، نتيجة لثقته المطلقه فى عبد الحكيم عامر ، ولأن هذه المؤسسة هى مفجرة الثورة ، ودرعها الحصين ، كما أقنعت التقارير جمال عبد الناصر بذلك .**

فكيف نبت وترعرع وتفاقم هذا الخطر ؟

لقد كان أهم ماشغل الثورة منذ قيامها ، **تنظيم العلاقة بين القيادتين ، السياسية والعسكرية .** لكن اختيار محمد نجيب ليكون واجهة لقيادة الثورة والدولة ، خلال مرحلة ١٩٥٢ ـ ١٩٥٤ ، جعل هذه العلاقة منذ البداية تكتسب طابع التعقيد . فالقيادة الرسمية ذات النفوذ الشعبى ، أرادت استكمال سيطرتها على كافة مؤسسات الدولة ، وخصوصا الجيش ، والانفراد بالسلطة ، واستبعاد قائد الثورة الحقيقى ورفاقه من أعضاء مجلس قيادة الثورة .

ولم تستسلم المؤسسة العسكرية التى كان يهيمن عليها مجلس قيادة الثورة بقيادة جمال عبد الناصر ، لهذا الاتجاه ، بل قاومته ، واتخذت الاجراءات الكفيلة بدعم موقفها .. وخصوصاً قرار **ترقية « الصاغ » عبد الحكيم عامر إلى رتبة اللواء ،وإسناد قيادة الجيش إليه رسمياً .**

كان هذا القرار الذى اتخذ عام ١٩٥٣ معبراً عن الصراع بين سلطة قائد الثورة جمال عبد الناصر ورفاقه ممن أسهموا فى التحضير للثورة وقيامها ، وبين السلطة الرسمية الممثلة فى محمد نجيب ، الذى استمد شعبيته من قرارات لم تكن أصلا من مبادراته الخاصة ، بل كانت نابعة من جمال عبد الناصر ورفاقه .. وخصوصا الاصلاح الزراعى ، والقضاء على النظام الملكى ، وإعلان الجمهورية ، وتنظيم حركة الكفاح المسلح ضد الاستعمار البريطانى .

وخلال الفترة من ١٩٥٤ ، وحتى العدوان الثلاثى ، تحقق الإتساق النسبى بين القيادتين السياسية والعسكرية ..

لكن تزايد الاعتماد والثقة فى المؤسسة العسكرية ، وقائدها المشير عبد الحكيم عامر خلق بذور انفصال هذه المؤسسة خارج الإطار التنظيمى للدولة .. واكتسابها مركز قوة وسلطة ، صعب على القيادة السياسية بعد ذلك ، بزعامة جمال عبد الناصر ، السيطرة عليها ، بل إن القيادة العسكرية ، وخصوصا بعد إنهيار الوحدة المصرية السورية ، تزايد نفوذها ، إلى حد رفضت فيه أى تدخل أو رقابة أو حساب . وشكلت بروزاً « ورمياً » خطيراً ، أصبح من الصعب استئصاله ، مما جعل القيادة السياسية ، تشعر بتزايد عجزها عن مواجهة هذا الخطر .

وبينما كانت القيادة العسكرية متفرغة لتعزيز نفوذها ، للمحافظة على الأرض التى اكتسبتها ، كانت القيادة السياسية مشغولة بمشاكل المواجهة ضد المؤامرات الاستعمارية والرجعية ، والعمل من أجل تجاوز نكسة الانفصال ، وإعادة المد الوحدوى إلى الأمة العربية من جديد .

وكان من الطبيعى ، أن تختل موازين الكفاءة عند اختيار قيادات الجيش .. لتحل محلها **موازين الولاء ..** وأصبح « التأمين » **الذاتى** للمواقع التى اكتسبتها القيادة العسكرية ، وليس الأمن القومى ، يحتل المكان **الأول .**

وهناك أمثلة كثيرة ، **تعبر عن مشكلة انقسام أو ازدواج السلطة فى هذه المرحلة ، وعن الصراعات والتحديات النابعة عن انقسام الدولة إلى قسمين : الأول يتمثل فى مؤسسة الرئاسة بزعامة جمال عبد الناصر ، أى القيادة الشرعية والرسمية للثورة والدولة .**

والثانى يتكون من المؤسسة العسكرية بقيادة المشير عبد الحكيم عامر .

من أبرز أمثلة هذا الصراع ، ماحدث عام ١٩٦٢ . بعد تشكيل مجلس الرئاسة بقيادة جمال عبد الناصر ، وعضوية عبد الحكيم عامر ، وعبد اللطيف البغدادى ، وزكريا محى الدين وحسين الشافعى وكمال الدين حسين - نواب رئيس الجمهورية - ثم أنور السادات وحسن ابراهيم وعلى صبرى والدكتور نور الدين طراف والمهندس أحمد عبده الشرباسى وكمال الدين رفعت .

أى عشرة من العسكريين واثنين فقط من المدنيين . وكانت القضية الأولى التى شغلت جلسات المجلس ، هى الحد من سلطات المشير عبد الحكيم عامر القائد العام للقوات المسلحة ، بعد تجربة عام ١٩٥٦ ، وارتكابه لأخطاء جسيمة ، وبعد ماحدث أثناء الانفصال ، حيث كان موجوداً فى دمشق ومعه سلطات رئيس الجمهورية . ومع ذلك وقع الانفصال من ضباط مكتبه .. وهو عاجز عن التصرف .

كان مشروع القرار الذى استهدف الحد من سلطات المشير ، ينحصر فى نقطة أساسية ، وهى جعل مسئولية تعيين قادة الوحدات فى الجيش من مسئولية مجلس الرئاسة وليس مسئولية المشير .

وعندما عرض مشروع القرار ، طلب المشير تأجيل النظر فيه ، لكن أغلبية المجلس وافقت عليه ، وصدر القرار .

عندئذ خرج المشير من الاجتماع غاضبا . وقدم استقالته . ثم تضامن معه قادة القوات البرية والبحرية والجوية ، والكثير من القادة الكبار .

وشعر عبد الناصر بخطر انقسام الجيش على نفسه . وكان حرصه على تماسك الجيش ، يبعده فى كثير من الأحيان عن الرؤية الصحيحة لمواجهة تحديات المشير .. كما أن الصداقة القديمة العميقة للرجلين ـ ناصر وعامر ، ربما تكون أحد عوامل هذا الموقف .

وبعد بحث طويل ، قرر عبد الناصر رفض قبول استقالة المشير .. الذى استفاد كثيراً من تضامن قيادات الجيش معه فى تدعيم موقفه .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد . مجلس الرئاسة اتخذ قراراً بعزل قائد القوات الجوية الفريق محمد صدقى .. الذى سبق أن تقرر عزله عام ١٩٦١ ، نتيجة تأخره فى ارسال امدادات لقوات اللاذقية التى ظلت تقاوم الانفصال . ونتيجة لهذا التقصير ، انتهت المقاومة ، واعتقل الهابطون بالمظلات .

واعترض المشير عامر على ذلك للمرّة الثانية .. وظهر أمام قادة القوات المسلحة بمظهر المدافع عنهم .

وحدث خلاف ثالث خطير بين عبد الناصر وعامر ، حول عودة بعض قيادات الجيش من سوريا للعمل فى مصر .. وتركز اعتراض عبد الناصر على عودة اللواء أنور القاضى واللواء أحمد زكى عبد الحميد . والعميد أحمد علوى ، والعقيد محمد

استامبولى مدير المخابرات . بل ان اتفاقاً تم بين عبد الناصر وعامر على اخراج قادة القوات البرية والبحرية والجوية من الخدمة خلال فترة يتم فيها التمهيد لاصدار القرار .. لكن القرار لم يصدر .. وتذرع المشير بحرب اليمن .. وأصبح القرار كأن لم يكن .

هنا لابد أن يتساءل الكثيرون : إذا كان الأمر قد وصل إلى ما وصل إليه فلماذا لم يستخدم عبد الناصر سلطاته السياسية ـ ونفوذه الجماهيرى العظيم ، لوضع حد لهذا « الازدواج فى السلطة » .

والى أى حد انعكس هذا الازدواج ، على قضية الديمقراطية والوحدة العربية .. وهزيمة حرب يونيو عام ١٩٦٧ .

• • •

ماهى المحصلة المنطقية لازدواج سلطة ٢٣ يوليو ؟

٤

تناولت فيما سبق قضية انفصال المؤسسة العسكرية بقيادة المشير عامر ، عن الاطار التنظيمى للدولة ، وصعوبة سيطرة القيادة الناصرية عليها .. وكيف تمكنت القيادة العسكرية ، من كسب مواقع شبه حصينة ، ورفضها أى نوع من التدخل أو الرقابة أو الحساب .

ثم طرحت سؤالين ، هما : لماذا لم تتدخل القيادة السياسية لحسم هذا الازدواج فى السلطة ؟ والى أى حد انعكس هذا الازدواج على قضية الديمقراطية ، والوحدة العربية ، وهزيمة حرب ١٩٦٧ .

والإجابة على السؤال الأول ، يمكن تركيزها فى الحقائق التالية :

أولا : ان تعاظم نفوذ المؤسسة العسكرية ، وظهورها الخارج عن نطاق الإطار التنظيمى للدولة ، لم يحدث فجأة ، أو خلال فترة زمنية محدودة . إنما ظل هذا « الورم » الخبيث يتسلل ببطء ، معتمداً على الثقة شبه الكاملة من جانب الزعيم جمال عبد الناصر ، فى ولاء وتقدير هذه المؤسسة ورئيسها له .

ثانيا : وكان لانشغال عبد الناصر بالقضايا القومية الكبرى واهتمامه بتحقيق طموح الشعب المصرى فى التقدم الاقتصادى والعدالة الاجتماعية . أكبر الآثار فى استفحال هذا الخطر .. لثقته الكاملة بأن « صديقه الحميم » المشير يقوم بدوره الكبير فى المؤسسة العسكرية ، بما يتفق مع استراتيجية القيادة السياسية ، وخضوع هذه المؤسسة فى نهاية الأمر ، لسلطة القائد الأعلى لها ، وهو جمال عبد الناصر .

ثالثا : ان اكتشاف عبد الناصر لتحول هذه المؤسسة إلى مركز قوة ، جاء متأخراً كثيراً .. وبعد أن انتقلت موازين القوي إلى القيادة العسكرية ، وأصبحت القيادة السياسية عاجزة عن كبح جماحها .

رابعا : ان حرص جمال عبد الناصر على وحدة القوات المسلحة ، وتماسكها ، ربما دفعه إلى تقديرات خاطئة .. قوامها أن تصحيح هذه الأوضاع ، لابد أن يترتب عليه صدام يصعب تقدير مداه .. فى ظروف داخلية ، وعربية ودولية ، تستوجب حماية القوات المسلحة من أى انقسام أو صدام .

خامسا : ان عبد الناصر كان مطمئنا تماما من ناحية الحدود النهائية لطموح المشير عامر .. وأن هذا الطموح ، يستحيل أن يصل إلى حد التفكير فى **انقلاب ضد عبد الناصر .. وأقصى مايصل إليه ، هو تدعيم مركزه كقائد عام للقوات المسلحة ، والرجل الثانى فى سلطة الدولة بعد جمال عبد الناصر .**

ولاشك أن هذا العنصر ، أى ضمان عدم قيام المؤسسة العسكرية بانقلاب فى ظروف شهد فيها عبد الناصر انقلابات أطاحت بعدد من أقرب زعماء آسيا وأفريقيا إليه ، مثل الاطاحة بسوكارنو فى أندونيسيا ، ونكروما فى غانا ، فضلا عن الانقلاب الانفصالى فى سوريا ، الذى أجهض على أول مشروع قومى عظيم للوحدة العربية . لعب دوراً أساسيا فى وصول المؤسسة العسكرية إلى مركز القيادة الفعلية .

وفيما يتصل بالآثار القومية التى ترتبت على هذا الوضع ، أى بروز المؤسسة العسكرية كمركز قوة يتحدى اشراف الدولة عليه ، فإنها كانت كثيرة ودامية .

فالجذور الأولى التى انبثق منها هذا الخطر ، تمثلت فى أن ثورة ٢٣ يوليو انطلقت من داخلها ، وتأمين هذه الثورة أثناء مرحلة الصراع ضد نجيب والاحزاب السياسية القديمة اعتمد عليها . واختيار عبد الحكيم عامر عام ١٩٥٣ ، ليكون القائد العام للقوات المسلحة ، نبع أيضا من هذه الظروف .. وليس من اعتبارات الكفاءة أو الخبرة أو الأقدمية .

وكان من الطبيعى ، وفقا لمنطق الأحداث والأزمات - أن يتزايد الاعتماد عليها .. لتصبح القيادات العسكرية - وأجهزة المخابرات . **هى القوة الأساسية التى يعتمد عليها عبد الناصر أثناء معاركه المتصلة ضد أعداء الثورة فى الداخل والخارج .. وضد القوى الاستعمارية .**

ومن هذه الأرضية وحدها ، يمكن فهم وتفسير الأسلوب الذى سيطر على أول تجربة للوحدة العربية فى عصرنا الحديث ، بين مصر وسوريا ، وإقامة الجمهورية العربية المتحدة .. فقبل هذه الوحدة ، كانت القوى الشعبية فى سوريا ، قد اكتسبت مواقع هامة .. تجسدت فى هزيمة منطق الانقلابات العسكرية ، وحق التيارات السياسية المختلفة فى تكوين أحزابها المستقلة .

واشترطت القيادة السياسية الناصرية ، كتعبير عن تأثرها بما يجرى فى مصر . حل الأحزاب السياسية فى سوريا ، وتشكيل التنظيم الواحد ، وهو **الاتحاد القومى** كامتداد للاتحاد القومى فى مصر .

وبقدر مارفضت التيارات الشعبية اليسارية هذا المنهج بعنف ، بقدر مارحبت به القوى الرجعية ، بل والقوى الوطنية القصيرة النظر .

وبحل الأحزاب السياسية ، والصراع ضد التيارات اليسارية ، ظهر الحزب الواحد فى سوريا ، وسيطرت العقلية العسكرية والبوليسية على مجرى الأحداث ، فى سوريا .

وعندما اتخذ جمال عبد الناصر قراراته الاشتراكية العظيمة فى يوليو ١٩٦١ ، تحركت بسرعة القوى الرجعية التى ضربت هذه القرارات مصالحها ، وتحركت المؤسسة العسكرية السورية ، التى اعتقد المشير عامر أنها خاضعة تماما لسلطاته ، **بل وتحرك الاتحاد القومى السورى ، ضد الوحدة ، لتنهار بسرعة يصعب**

تصديقها .. ولاتستطيع القوى الشعبية الدفاع عنها . نتيجة لتصفية تنظيماتها ، واعتقال زعمائها ، وهيمنة الاسلوب العسكرى البوليسى على الموقف .

لقد كانت الوحدة المصرية السورية . عملاً معبراً عن الشخصية الجبارة لجمال عبد الناصر . وعن الثقة شبه المطلقة التى منحتها له الجماهير العربية فى كل مكان . كما كانت القرارات الاشتراكية .. أصدق تعبير عن ثورية جمال عبد الناصر .. وحبه العميق للجماهير ، ورغبته فى تحقيق حلمها التاريخى القديم فى مجتمع تسوده قيم التقدم والتحرر والعدالة الاجتماعية .

لكن هناك فارقا شاسعا بين أعظم النوايا الثورية للزعماء ، وبين الأساليب التى يعبرون بها عن هذه النوايا .. أو الأساليب التى يختارونها لوضع قراراتهم موضع التطبيق . ولاشك أن الجماهير العريضة فى سوريا ، كانت مصالحها القومية والوطنية والاجتماعية ، تتفق مع الوحدة ، ومع قيادة عبد الناصر .. لكن هذه الجماهير ، اتخذت موقفاً سلبيا من الانفصال ، لانعدام وجود تنظيم أو تنظيمات شعبية قادرة على مواجهة انقضاض الرجعية على الوحدة والمكتسبات الشعبية .

بل ان الاسلوب العسكرى ، امتد أثره إلى العلاقة بين الثورة المصرية والثورة العراقية التى انفجرت عام ١٩٥٨ . فالأجهزة العسكرية المصرية ، كانت على صلة بالعناصر الساخطة فى الجيش العراق . لكن انفجار هذه الثورة ، لم يتم بأسلوب ثورة ٢٣ يوليو . أى عن طريق الجيش وحده بل اشتركت الأحزاب السياسية القومية والثورية فى هذه الثورة منذ اليوم الأول .. أو الجماهير العراقية المنظمة فى أحزابها ، هى التى تولت القصاص من قادة النظام القديم .. وفرضت قوتها منذ الأيام الأولى للثورة .

وبسبب قوة الحركة الجماهيرية فى العراق ، **بدأت التقارير العسكرية والبوليسية تتدفق على عبد الناصر .. تصور له الأمور على غير حقيقتها .. وتقنعه بأن الحركة الجماهيرية القوية فى العراق ، هى من صنع « الشيوعيين » ! وأن عبد الكريم قاسم ارتمى نهائيا فى أحضان الشيوعيين !** بينما الواقع كان عكس ذلك تماماً .. إذ أن عبد الكريم قاسم ،

كان يستخدم أخطر أساليب المكر والدهاء ، لتقسيم صفوف الحزب الشيوعى العراق ، وإضعاف نفوذه .. والسعى لتحطيم مواقعه بين الجماهير .

وفى غمرة الصراع الذى اندلع بين القيادة السياسية فى الجمهورية العربية المتحدة وقتذاك ، بزعامة جمال عبد الناصر ، وبين عبد الكريم قاسم وحلفائه فى العراق ، تحركت العقلية العسكرية بسرعة .. لمحاولة إحداث إنقلاب ضد السلطة العراقية ، تزعمه الشواف ، وهو أحد قادة الجيش ، لكن الإنقلاب فشل .. وبعده اشتد الصراع واكتسب ضراوة رهيبة بين القيادتين فى القاهرة وبغداد .

● ● ●

وهكذا تحول حلم انضمام العراق إلى الوحدة المصرية السورية ، إلى نكسة خطيرة .. عمقت عوامل انقسام الوطن العربى .. ثم جاءت نكبة انفصال سوريا ، لتضيف المزيد من هذه العوامل .

ولايعنى ذلك ، أن الأخطاء كانت من جانب العقلية العسكرية المسيطرة على ثورة يوليو فقط ، بل ان الأطراف الأخرى فى العراق وسوريا ، وخصوصا التيارات اليسارية والقومية ، ارتكبت أيضا الكثير من الأخطاء الخطيرة ، التى عمقت الفجوة بين التيار الناصرى القومى الثورى وبين التيارات الثورية والقومية والديمقراطية فى سوريا والعراق بصفة خاصة .

● ● ●

ماهى المحصلة النهائية للتجربة الناصرية .

لاشك أن ثورة يوليو ، بقيادة جمال عبد الناصر ، ترق بكل المعايير إلى مرتبة الحدث التاريخى العظيم .. ليس فقط فى مصر وحدها ، بل على امتداد وطننا العربى والعالم بأسره .

وبسبب ضخامة هذا الحدث وأثره العميق ، كان من الطبيعى أن تختلف مناهج وأساليب تحليله وتقييمه .. فهناك من ينظر إلى هذا الحدث وقائده « بتقديس » يرفض أى نقد .. بل ويعتبر مثل هذا النقد خيانة وطنية .

وهناك منهج يقوم على التشهير بالثورة وقائدها ، ويعتبرها كارثة وطنية .. سرقت السلطة والثروة من أصحابها الحقيقيين باسم الجمهورية والاشتراكية والحكم الثورى ، كما لايرى هذا الاتجاه ، فى ثورة ٢٣ يوليو ، سوى معسكرات الاعتقال

والسجن الحربى ، والتعذيب ، والخراب الاقتصادى ، وهزيمة ١٩٦٧ .

أما المنهج الثالث ، وهو الذى استرشدت به فى كتابة هذه الدراسة ، فإنه منهج نقدى موضوعى .. يضع منجزات الثورة فى المكان الأول .. ويعترف بالأخطاء والتجاوزات .. أى أنه يضع حداً فاصلا بين ماهو جوهرى وماهو عارض فى مسيرة هذه الثورة .

فالمقاومة الصلبة للاستعمار والاحلاف الأجنبية . وتحرير الاقتصاد الوطنى من السيطرة الاستعمارية ، وتأميم قناة السويس ، وبعث الحركة القومية العربية .. كل هذه المنجزات تعبر عما هو جوهرى وثابت وأصيل للثورة .

فى حين أن الاعتماد على المؤسسة العسكرية ، والاكتفاء بالاتصال المباشر بالجماهير ، والتعبير عن أمانيها فى الحرية والوحدة ، دون اعطائها حق التعبير الحر عن مواقفها داخل تنظيماتها المستقلة ، أو مشاركتها فى خلافات وصراعات الأجنحة المختلفة للقيادات المحيطة بجمال عبد الناصر ، هذه الظواهر السلبية ، تعبر عما هو عارض وطارىء وغير أصيل فى المجرى العام .

وفى إطار ماهو جوهرى وأصيل ، تبرز القرارات الاشتراكية ، وتصفية الاقطاع وحركة التصنيع ، والسد العالى ، ومجانية التعليم ، والكثير جداً من مثل هذه الأعمال .

بينما كانت السيطرة البيرقراطية العسكرية .. على هذه المؤسسات ، وغياب الديمقراطية ، من السلبيات التى يستحيل انكارها وإن عبرت عما هو عارض بالقياس إلى الجوهر العميق لهذه المنجزات .

● ● ●

مرة أخرى ، وأخيرة ، نطرح السؤال الذى تكرر كثيرا ، وهو : **ألم يكن فى وسع جمال عبد الناصر ، تجاوز المؤسسة العسكرية ، وبناء تنظيم شعبى ديمقراطى ، يعبر عن تأييد الجماهير له ، ويسلحه بالثقة فى المواجهة الحاسمة مع القيادات العسكرية ، والقضاء على ظاهرة ازدواج السلطة ؟**

الإجابة ستأتى هذه المرة من ضياء الدين داود ، عضو اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى فى مصر ، أثناء عصر عبد الناصر .

يقول فى كتاب « سنوات مع عبد الناصر » : « **عرفت انقسام السلطة إلى قوة فى الجيش وحول المشير ، وقوة فى الرئاسة حول الرئيس عبد**

الناصر . قوة فى الجيش قامت على الرفاهية والإغداق والتمتع والامتداد بالنفوذ إلى مختلف الاتجاهات ، واتخاذ كافة الأساليب كما تبدو أنها التى تحافظ على النظام وتحميه .. وأنه ليس هناك قوة بديلة . وكانت تنظر بغير ارتياح إلى محاولات إقامة تنظيم سياسى فعال يحشد الجماهير وينظمها بالوعى .. ويخلق الكوادر ، وبالتالى تكون سندا للنظام وحمايته الحقيقية .

وكان هؤلاء - أى العسكريون - يرون فى ذلك خطراً على نفوذهم وعلى وجودهم .. ومن هنا جاء الصدام .. وجاءت المواجهات التى وصلت قمتها ضد منظمة الشباب .

وظلت الصورة تتضخم ، حتى طالب المشير بحل المنظمة ، واعتقال على صبرى وشعراوى جمعة ، وحسين كامل بهاء الدين ، وأن توضع المنظمة تحت اشراف المشير ».

وكانت هزيمة ١٩٦٧ ، هى المحصلة المنطقية لازدواج السلطة . ورفض المشير عامر التدخل لاحلال قيادات عسكرية فعالة .. واقناع عبد الناصر بقدرة هذه المؤسسة على مواجهة إسرائيل والانتصار عليها . وكان الانهيار السريع لهذه المؤسسة التى لم تستفد حتى من إنذار عبد الناصر بأن الهجوم سيحدث فى الخامس من يونيو ، هو التعبير الكامل عن ضعف وهزال هذه المؤسسة .

هنا ينبغى التأكيد على نقطة بالغة الأهمية .. وهى أن التحليل السابق ، لا يعنى إعفاء عبد الناصر من المسئولية . لقد كان فى مقدوره وخصوصاً خلال ذروة نفوذه الشعبى فى السنوات من ١٩٥٦ إلى ١٩٥٨ ، أن يتصدى للمؤسسة العسكرية ، ويضع على رأسها الرجل القادر على الانتقال بالجيش من وضع القائم بالثورة ، إلى مكانه الطبيعى .. كجيش يتسلح بأحدث العلوم العسكرية ، ويقوم بوظيفة واحدة هى الدفاع عن الوطن . بيد أن ذلك لم يحدث .. بل استشرى نفوذ العسكريين فى شتى الميادين السياسية والاقتصادية ، على حساب الدور المفقود للجماهير الشعبية والقيادات المدنية المسلحة بالعلم والخبرة والاخلاص .

ومن هنا ندرك أسرار هذا التناقض .. بين ماهو عبقرى وعظيم ، وبين أخطاء لاتتفق مع ماحققته هذه العبقرية من أمجاد .

المحتوى

● المقدمة ... بقلم أمين عز الدين ٣

﴿ الباب الأول ﴾

● الفصل الأول : هل انهار المشروع القومى الناصرى ١٣
● الفصل الثانى : المواجهة الاستعمارية للمشروع القومى الناصرى ١٩
● الفصل الثالث : ينابيع الفكر القومى الناصرى ٢٧
● الفصل الرابع : التكوين الفكرى لقيادة الثورة ٣٥
● الفصل الخامس : الفكر الناصرى وقضية الاصالة والمعاصرة ٤٣
● الفصل السادس : مفهوم الدولة العصرية القومية ٥١
● الفصل السابع : المشروع القومى الناصرى ومشروع محمد على ٥٩
● الفصل الثامن : مضمون الهوية القومية فى الفكر الناصرى ٦٧
● الفصل التاسع : المشروع القومى بين الابداع والاتباع ٧٣
● الفصل العاشر : التحالفات المشبوهة ضد المشروع القومى ٨١
● الفصل الحادى عشر : المشروع القومى بين الاستمرار والاستبعاد ٨٩

﴿ الباب الثانى ﴾

● الفصل الأول : دور جمال عبد الناصر فى حركة التاريخ ٩٩
● الفصل الثانى : رؤية موضوعية لأخطاء التجربة الناصرية ١٢١
● الفصل الثالث : صراع السلطة بعد الاطاحة باللواء محمد نجيب ١٢٩
● الفصل الرابع : ما هى المحصلة المنطقية لإزدواج سلطة ٢٣ يوليو ؟ ١٣٥

المراجع العربية

١ ـ فلسفة الثورة . الهيئة المصرية العامة للاستعلامات . القاهرة ١٩٦٤ .
٢ ـ ميثاق العمل الوطنى . الهيئة المصرية العامة للاستعلامات . القاهرة ١٩٦٤ .
٣ ـ بيان ٣٠ مارس . الهيئة المصرية العامة للاستعلامات . القاهرة ١٩٦٤ .
٤ ـ طارق البشرى ـ المسلمون والأقباط فى اطار الجماعة الوطنية ـ دار الوحدة بيروت ١٩٨٢ .
٥ ـ الدكتور عبد العظيم رمضان ـ تطور الحركة الوطنية المصرية ١٩٣٧ ـ ١٩٤٨ . هيئة الكتاب القاهرة ١٩٦٠ .
٦ ـ انتونى ناتنج ـ ناصر ـ ترجمة شاكر ابراهيم سعيد . مطبوعات دار مكتبة الهلال . بيروت ١٩٨٥ .
٧ ـ احمد حمروش ـ مجتمع عبد الناصر ـ دار الموقف العربى . القاهرة ١٩٨١ .
٨ ـ عبد الناصر بقلم رفاقه ومعاصرية ـ دار الموقف العربى . القاهرة ١٩٨١ .
٩ ـ القرارات الكبرى لثوره ٢٣ يوليو ـ الهيئه المصرية العامة للاستعلامات . القاهرة . ١٩٨٥ .
١٠ ـ مذكرات السلطان عبد الحميد ـ ترجمة وتقديم وتحقيق وتعليق محمد حرب عبد الحميد القاهرة. ١٩٧٨ .
١١ ـ ساطع الحصرى ـ العروبه أولا ـ دار العلم للملايين . بيروت . ١٩٥٥ .
١٢ ـ محمد حسنين هيكل ـ عبد الناصر والعالم ـ دار النهار ـ بيروت. ١٩٧٢ .
١٣ ـ الدكتور أنور عبد الملك ـ ريح الشرق ـ دار المستقبل العربى . القاهرة ١٩٨٠ .
١٤ ـ الدكتور محمد عمارة ـ العرب والتحدى ـ عالم المعرفة . الكويت . ١٩٨٠ .
١٥ ـ أمين هويدى ـ حروب عبد الناصر ـ دار المستقبل العربى . القاهرة . ١٩٨٤ .

● الطبعة الأولى ١٩٨٦ ●

رقم الايداع
٨٦١٧٩٣٦ ـ بتاريخ ٢٢ / ١٢ / ١٩٨٦